رواية
سلمى وَديع اسمندر
بيت الحلزون

بيت الحلزون

رواية
سلمى وديع اسمندر

الإهداء: إلى روح والدي وديع ، وإلى كل من يمشي ويترك وراءه أثر في هذا العالم .

إلى جميع معتقلي الرأي على كل شبر من هذه الأرض وبالأخص للفئة التي عانت من حكم آل الأسد .

-مقدمة-

عزيزي القارئ ، في هذه الرواية ستقرأ كلمات نابعة عن مشاعر حقيقة ، وليست من وحي الخيال ، وستصادف بين السطور اسم بطلها وهو والدي وديع ، ولعلك ستسأل نفسك من هو وديع ؟ لذلك في هذه المقدمة سأخبرك من هو وديع اسمندر قبل أن تغوص في تفاصيل رواية طفلته المدللة سلمى.

الروائي والسينارست السوري وديع اسمندر والذي سُجن سبع سنوات في معتقلات النظام السوري.

ولد وديع اسمندر في قرية الزياديةا بمحافظة اللاذقية عام 1946

عمل صيادا في ميناء جبلة مذ كان طالبا في الصف السابع وبقي صياداً مايقارب السبع سنوات من حياته وكتب روايته الأولى "اللبش" ومعناها الرياح الجنوبية الغربية بلغة الصيد . وأهداها إلى جميع عمال ميناء مدينة جبلة

حاز في حياته على شهادتي التاريخ والصحافة بجامعة دمشق ومن ثم تعمق بعالم الثقافة والأدب ليعمل لاحقا في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون بصفة "قارئ نصوص" بدائرة التمثيليات في إذاعة دمشق ثم انتقل ليعمل في دائرة الأخبار كمعد للنشرة ثم ككاتب وسيناريست للعديد من المسلسلات الإذاعية والتلفزيونية .

له العديد من الروايات منها

"اللبش" و"دموع السقف الحجري" و"سيرة رجل ما" و"الخميس الحزين" وقصائد نثرية بعنوان "بطاقات إلى أمي" إضافة إلى مجموعة قصصية بعنوان "حريق في مدينة قذرة" وأخرى بعنوان "الرأس" وهي آخر ماكتبه الراحل . وكتب بها قصة "رجل بلا اسم وتاريخ ميلاد" التي تكلم بها عن أخوه الذي توفي قبل مجيئه وأخذ اسمه وتاريخ ميلاده 1942 أما ميلاده الأصلي فهو قبل استشهاد والده بسنتين في حرب فلسطين 1948

كما عمل بكتابة السيناريوهات للعديد من التمثيليات الإذاعية والمسلسلات التلفزيونية منها "الزيزفون" "عطر البحر" و"رجل بلا حدود" و"القاضي والجلاد" و"الشمعة والدبوس" و"حارة الباشا" و "عشرة عمر يا بحر"

والسلسلة الإذاعية “عالم المسرح” وكتب سيناريو فيلم الأطفال “النجمة وأحلام أسامة” الذي حاز جوائز دولية في مهرجانات ببلغاريا وألمانيا وتونس. كما كتب في مجال المسرح " شهيد للبيع " "الرجل الضاحك" "الرجل العاري"
توفي وديع اسمندر في 26 تموز 2016 عن عمر ناهز 72 عاما بعد معاناة مع المرض العضال.
ومن أهم مقتطفات اسمندر :
-كيف يرضخ النور للظلام؟ وكيف يركع العلم للجهل؟
وكيف تحني الثقافة رأسها أمام التفاهة؟
"الخميس الحزين"

-كنت أسمع واقرأ عن رجال أشهروا احقادهم على فوهات بنادقهم، تحولت أحقادهم إلى حلقات ومناشير، ومظاهرات، وأسلحة مليئة بالقهر والرّصاص. لكنني لم أصدق ما قرأت وما سمعت، اذ كيف للحقد أن يتحول إلى أرغفة ودفاتر ومعاول وأسراب من العصافير؟كان الحقد الذي أعرفه وأراه يعشعش في صدور الناس، لا يصلح لشيء إلا لصنع تمائم تقي حامليها الغضب المثمر، والكبرياء، وعزّة النفس ،وتعلمهم الصّبر المريض والخوف والشّتائم السّرية!
"حريق في مدينة قذرة"

-كانت لديه قناعة ثابتة بأن الموت حق. لذلك لم يكن يرهب الموت، بل كان يخشى أن ينتهي المرء دون أن يترك وراه أثراً، ولداً صالحاً، عملاً طيباً، حادثة صيد خارقة ، أي شيء يعيده بين الحين والحين إلى أذهان الأحياء..
-كيف ينسى الإنسان؟!
مرة قال أمامه أحد البحارة : إن الخمرة تنسي المرء الهموم، وتبعد عنه الذكريات الحزينة . لكنه منذ أن تعلم شربها، بدأ يلاحظ أن ذهنه يزداد حدة وصفاء ، وقدرة على استرجاع كل ما يؤلم ، وعلى طرد لحظات الهناء ، حتى بات يجد صعوبة في تذكر ابتسامة أبيه ، أو استعادة صدى ضحكاته التي كانت تملأ البيت
"اللبش"

- *التاجر(ينهض ويقدم له صليباً): انظر إليه لترى كم يكلف من تعب ومال وبعدها اتهم كما تشاء. خذه اعتبره هدية مني

*الرجل: ابعده عني ارجوك طالما لا يتحول إلى بندقية أو مدفع
*الشاب: السلاح محظور بنا ياسيدي ولدينا الكثير منه وكل هذا لاجلك
*الرجل: ليس المهم السّلاح فحسل بل السّاعد الذي سيضرب به وضد من يستخدم.
"مسرحية الرجل العاري"

-أتريد من رجلٍ مثلي أن يبتسم لك في الوقت الذي يرغب فيه بقتلك؟
لا يا سيدي!! علمتني أمي أن أرفض تقبيل اليد التي أرغب في كسرها.
في ليلة الأمس، رأيتك في حلمي ميتاً ،فبكيت
بربك كيف لا أبكي عليك، وأنت هدفي الذي لا أريد حتى للموت أن يسبقني إليه؟! أنت لي وصدرك دريئتي، وأنا القنّاص الذي يتقن إصابة الدائرة السوداء بخمس طلقات
"الرأس"

في وقت مبكر
تخلصت عيناي من عمى الالوان
وتجرأتا على رؤية العالم كما هو
وكما يجب ان يكون
لذلك لم يكن غريبا ان تتربص بهما عشرات المخارز
فيما مضى
كان لي فم يقوى على الابتسام
حتى في الاوقات الصعبة
فم صغير لكنه يقوى على قول الأشياء الكبيرة
فم يتقن التذوق وتوزيع القبلات واطلاق اللعنات والشتائم
لذلك اخترعوا له كمامة كاتمة للصوت
فيما مضى
كان لي انف حساس يعشق رائحة العشب والاطفال

ويكتشف رائحة الاستبداد والخيانات
أنف متعب يدس نفسه في كل مشكلة
من اجل ذلك حقنوه بفيروس الزكام
فيما مضى كان لي اذنان عاشقتان للموسيقى
ولأناشيد الفرح السرّي
طبل ومطرقة وسندان
عصب متعرج يصل الى مخ الارض
ينقل الى راسي كل ما يجري
كم هي متعبة الاذن التي تعي ما تسمع ؟
لذلك اخترعوا لها مسامير البولاد
فيما مضى
كان لي عشرة اصابع مزودة بذاكرة اللمس
بين راحتيها يتوهج العالم وهو يتحول من صورته البدائية الى خلق جديد .
بهذه الاصابع اكتشفت نعومة الافاعي
وخشونة العمل اليدوي
ولكن من اجل هكذا يدين تم اختراع القيود
فيما مضى كان لي ذاكرة قوية تمتد من اعماق التربة
الى سماء هذا الزمن الموبوء
مرة تخاصمت مع ذاكرتي وسار كل منا في طريق
يومها تقاذفتني الدروب من تيه الى تيه
فأدركت أن الخارج من ذاكرته مفقود
وان الداخل الى ذاكرته مولود
فعدت الى ذاكرتي ارتديتها ومضيت
فيما مضى
كان لي قلب جسور يرق كالدمعة
ويقسو كبلطة
كانت انهار العالم تنبع من قلبي وتصب فيه
صارت ضلوعي اشرعة لمراكب الصيد
وعلى شرفة قلبي يستريح المقاتلون والشعراء والعشاق
قلب صغير لا يتسع لاكثر من العالم
ومن اجله اخترعوا الهموم والسكتة القلبية
فيما مضى
كان لي كل هذه الحواس

ولأنها كثيرة على شخص واحد
أخذوها مني في الزنزانة
أخذوها حاسة , حاسة
وتركوني مجرد شيئ يشبه الانسان

وهذا كان مقتطف صغير من حياة وديع اسمندر التي كانت اشبه بالفيلم ، ومادفعني لأكتب عنه هو التشابه الكبير بين شخصية رامبو في كتاب "رامبو وزمن القتلة" للكاتب هنري ميللر وشخصية الكاتب وديع اسمندر، ((لقد أعطى الله نفسه وهو طفل، وأعطى العالم نفسه وهو رجل. وفي كلتا الحالتين أحس بأنه قد تعرّض للخديعة والخيانة، فالتف على نفسه لكن أعماقه ظلت سليمة ، غير مستسلمة ، غير ممكن بلوغها))
كما هو رامبو، كان وديع اسمندر بشخصيته الفريدة من نوعها المليئة بالتناقضات التي مازلت اكتشفها بعد وفاته،
فأنا اتعرف على والدي من ذكريات الطفولة واربطها مع رسائله وقصصه وكتبه ومسلسلاته.
لأحاول أن أفهمه .
لقد توفي وأنا في الصف الثامن ، كنت أراه شخصاً مظلوماً، لكن عشقي الكبير له دفعني لأن اتعرف عليه أكثر ..وديع اسمندر اسطورة ، كان رجلاً بكل ماتعنيه الكلمة ولأنه كان رجلاً ، كان مظلوماً، فالرجل بالفطرة هو إنسان حر ذو مبادئ لا يتخلى عنها ولا يخاف أن يظهر بحقيقته ولا يمتلك أية أقنعة..كانت عقاباته شديدة .
وكان في كل مرة يتصرف كميت ينهض من القبر، ثم ينفض الأتربة عن كفيه ثم يخاطر مرة أخرى.
كانت طاقته لا تُحد وإرادته لا تلين وجوعه لا يُشبع.
لكنه ابتعد عن الضجيج الإعلامي واكتفى بالأشخاص الصادقة الحقيقية، والتي أغلبها لم تكن حقيقة لكنها كانت بارعة في التمثيل .
أحببت جداً التشابه بين رامبو، و وديع ، كلاهما كان يعاني لأنه يحيا حياة طليقة.

سلمى وديع اسمندر

جلست طويلاً أبحث عن أطول عملٍ قمت به في تلك الاثنتا وعشرون سنة التي حصدتها من عمري .. فوجدت إن المحاربة كانت الأطول.
على الرغم من أنني لم أشارك جسدياً في معركة طوال حياتي ، معنوياً فحسب.
اجتزت عتبات جهنم أكثر من مرة ، حتى غدوت صديقة ألسنة النار ، فكلانا يتوهج ألماً، واكتشفت أن الألم هو جوهر الوجود ، وجوهر ردات الفعل حتى ولو بعد حين ، فليس لكل جرح قطب ، وحده الزمن كفيل بالتعايش مع تلك الجروح .
حاربت واقعي وخسارتي وخيباتي .. حتى لحظات حزني ، في كل مرة كنت أحارب لأنساها..أخيط جروح قلبي وهي ماتزال تنزف .
منذ كنت نطفة قد غرزت عن طريق الخطأ داخل رحم أمي ، كانت رغبة والدي في التخلص مني.. ولكن أمي رفضت والطبيب تدخل في إقناعه عندما قال:
" إن رزقت بصبي يكون أخاً لبناتك ريما وليلى ،وإن كانت فتاة .. من يعلم لربما تكون أفضل من أخوتها"
ولكون والدي شخص تتملكه العاطفة والحب للإنسان وحقوقه، لن يتحمل عبأ أن يسلب أهمها وهو الحياة، أتيت إلى هذه الدنيا بعد صدمات كهرباء على صدر أمي وهي تلدني، تخيل .. بينما هي عاندت لبقائي أنا كدت أجعلها ترحل ، فحرمني القدر من حليب أمي، فُطمت بعد مجيئي بخمسة عشر يوماً ، لأنها خضعت لعملية جراحية، وكان قد حذرها الطبيب من أي خطأ.. فحرمت حضنها أول أيام حياتي.
كنا ننظر لبعض وأنا في حضن جدتي ، طفلة تنظر إلى أمها .. فالطفلة تبكي، والأم ايضاً.
منذ طفولتي ، كنت أسبق ابناء جيلي بمراحل كثيرة من الوعي.
وصلت مرحلة المراهقة وأنا استوعب كل مايحدث حولي ، دائما ماكنت اسمع في رأسي صوتاً يلاحقني.
كلما ازداد وعيي اقترب مني هذا الصوت اكثر،
ذهبت إلى طبيب ليخبرني سبب هذا الصوت ، حدّق بي بحزنٍ وكأنه رأى الموت في وجهي. وقال:
-ليس هنالك أي مشكلة صحية، لكن مايدور برأسك من أفكار احتفظي بها لوسادتك ، اكتمي معتقداتك لتضمني عيشك.

ادركت أن هذا الصوت الذي اسمعه منذ طفولتي
كان صوت جنازتي.
لم اكن طفلة عادية، كانت أفكاري غريبة وكأن عمري تجاوز المئة ولكن كانت روحي بريئة، متسامحة ، خجولة..قبل فراق والدي،،
قبل وفاته ..كان قد علمني أن الحياة مليئة بالحروب. و سلاحها الصبر والقوة وأن الخوف مقتل صاحبه ، لأكون صادقة في العديد من المرات لم أقدر على الصبر، فرحيله قد كسر مابنيته حتى سن الثالثة عشر لم تكن تكفي تلك السّنين أن ارتوي من تجاربه ولا حتى من أحضانه.
كسرني غيابك يا والدي في تلك السنة الحزينة التي صادفت موعد الفصل الدراسي للصف التّاسع.
لطالما كانت الشّهادات تخلق الخوف لدى الطّلاب. فهي الخطوة الأساسية للانتقال من مرحلة لأخرى.
ماهو المستقبل الذي ينتظرني بدونك!
ماهي الأحلام التي ستقدر على أمتلاك الفرح بعد غيابك؟!
في كل صباح كنت أصحو وأنا أذكر ذلك اليوم الأسود يوم وقفت أمام جثمانك ترتجف يداي خوفاً من تصديق ما أرى .
فتحت ذلك التّابوت بقوة وثقة تامة بأني لن أراك داخله
كنت أشعر وكأنه كابوس يمزق روحي ولا أقدر على الهروب منه. كيف للموت أن يلاحق حبّي الأول والأخير بدون رحمة!
كنت جميلاً يا والدي حتى في مماتك.
وللحظة تخيلتك ستنهض وتقبلني على جبيني ونركض إلى اليقظة سوياً، كدت أصرخ بالجميع أن يلوذوا بالصمت لربما أسمع أنفاسك.
لا يزال ذلك المشهد يرافق ذاكرتي ، كنت طفلة لا تعرف معنى الألم ، وتحسب أن الموت هيّن .
حتى رأيت أمي مستلقية على الأرض ، تصرخ بالجميع اتركوني ممدة على هذه الأرض الباردة، لأشارك وديع ذلك الصقيع الذي يستقوي على جثمانه .
أما أنا .. فلم أدرك معنى كلامها حتى
شعرت ببرودة جبهتك ..عندما طبعت قبلة الوداع عليها جمّدت شفتاي وسلبت مني حتى الكلام.
كان النّجاح في وقتها أهون مما تخيلته.
وأتعس مما توقعت كان نجاحاً حزيناً ولولا فرحة أمي لم يكن ليعني لي شيئاً
.

أمي التي احتوتنا أنا وأخوتي لطالما كانت الجدار الذي استندت عليه. بين يديها كانت تمتلك سحراً . كل ماتلمسه يصبح جميلاً حتى أصبحت أفكر بأنها من لوّنت غيوم السّماء وأمواج البحر.
لم تكن من النوع الذي يقدم لأولاده العناق .
كانت من النوع الصّارم فخلقت بداخلنا قوة الاعتماد على الذات. كالسّيف في ظهرنا فقد قضت عمرها ترمم احتياجاتنا لنبقى مرفوعين الرأس في هذا العالم المتوحّش.
الجميع يحلمون بالقدرة على كسر رؤوس الآخرين للتلذذ بالعظمة المزيفة، يتشبّعون مرضاً وحقداً على النّاجحين . وأغلبهم يميلون إلى ما يسمى صلة الرّحم . التي لم أشعر بوجودها يوماً، كنا دائما وحيدين تحت جناح أمي الذي ينزف من ثقل الهموم والمسؤوليات . أصبحت نظرة العائلة لها مما حولنا أرملة لديها ثلاثة بنات فظنّ بعضهم بأنها ستصبح عبئ مادّي. والبعض الآخر ظنّ بأنها ستفشل في تربيتنا . ومنهم من كانت قلة الأصل تمشي في عروقهم منذ نعومة أظافرهم.
لكنها بقيت كالقلعة المحصّنة التي تطمئن جنودها ،
لقد كنت الجندي الأصغر بينهم. والجندي الأكثر جنوناً
في أغلب الأحيان كنت انا التي تختلق جو التوتر في المنزل، كنت أتكلم واتصرف بدون وعي، ألبس وجه القوة وأمام الجميع، وعندما اذهب ليلاً إلى الفراش اخلع هذا الوجه ،احتضنه والدموع تلألئ على وجنتي. خوفاً من أن يضيع مني واستيقظ بكآبتي وجناحي المكسور،
أحياناً كنت اختبئ خوفاً من ضوء النهار أن يكشف حزني . كان يحب أن يتحداني ويظهر في أشد المواقف. ارتجف وأغرس أظافري في كف يدي حتى تترك أثرا مؤلماً ..كان حزني يخدر أحساس الألم..
أذكر في طفولتي عندما عدت إلى المنزل ويدي مكسورة كنت قد بكيت كثيرا على عتبة باب منزلنا، ثم مسحت دموعي ودخلت، يومها كشف والدي بنظرة واحدة الألم في بؤبؤ عيني، واشتم رائحة دموعي . عندها نظرت إليه وانفجرت باكية حتى وصولنا المشفى.
كنت أشعر بالأمان والقوة بوجوده،
إنه من الصعب أن تفقد الشخص الوحيد الذي تظهر ضعفك أمامه بدون خوف.
بحثت كثيراً عنه، كنت أجده في المطر والبحر و النبيذ البلدي ،، كنت أسمع صوته في حفيف الأشجار، والمس وجهه على الورد الجوري.
وكلما كانت تهب ريح اللبش، كنت أشعر بوجوده.

اللبش وهي الرياح الجنوبية الغربية بلغة الصيادين ، التي تركت أثراً واضحاً في روح والدي ، حتى غدت عنواناً لروايته الأولى :

" -كيف ينسى الإنسان؟!
مرة قال أمامه أحد البحارة : إن الخمرة تنسي المرء الهموم، وتبعد عنه الذكريات الحزينة . لكنه منذ أن تعلم شربها، بدأ يلاحظ أن ذهنه يزداد حدة وصفاء ، وقدرة على استرجاع كل ما يؤلم ، وعلى طرد لحظات الهناء ، حتى بات يجد صعوبة في تذكر ابتسامة أبيه ، أو استعادة صدى ضحكاته التي كانت تملأ البيت "
لا أظن أن السبب لهذا الفيضان من المشاعر والاندفاع الهائل له فقط لأنها مشاعر متوارثة بالفطرة لمحبة الطفلة لوالده ، حددت كلمة طفلة فأنا لم يكن من قدري أن اتجاوز تلك المزحلة برفقته ، بالعكس كانت وفاته في الصدمة الأولى التي دهست تلك الطفولة وحطمتها لأجزاء، وفي الوقت ذاته كانت ذكراه ترمم ذلك الحطام،
الداء والدواء في آن واحد، تارك اذكره وابتسم ، وتارة أخرى أكاد أمزق روحي حزناً حتى أكاد أختنق من شدة البكاء.
إنه ليس مجرد أب، إنه الكاتب وديع اسمندر الذي لا يعرف متى ولد!
لطالما كان يقول لربما أعرف متى سأموت لكنه من المستحيل أن أعرف متى ولدت.
محبتي لذلك الرجل كانت نابعة بشكل كبير لكونه شخص لن يكرره الزمن.
منذ صرخته الأولى خارج رحم أمه سلبت منه الحياة أسمى حقوقه وهي اسمه وتاريخ ميلاده ، وقد عبر عن ذلك في مجموعته القصصية الأخيرة **"الرأس"** فكتب قصة عنوانها **"رجل بلا اسم "** وأهداها إلى أخيه الذي توفي وحمّله والده اسمه فيما بعد ثلاث سنوات:
-هل ستتركني بلا اسم؟! ارجوك لا تفعل ذلك . أنت طفل ميت ولست بحاجة إلى..
لم يدعه الطفل يكمل حديثه بل صرخ في وجهه مقاطعاً:
-أنت الميت وليس أنا، والأيام القادمة سوف تؤكد ذلك ، والآن أعطني اسمي وعد إلى النوم ، فالوقت ضيق وأمامي الكثير لأنجزه.
-لن أبقى بلا اسم.
-ألا يكفيك لقب جبان؟! أعطني اسمي ودعني أرحل.
-لا..لا..لا.

هذا المقتطف من القصة يعبر عن معاناة حقيقية عاشها وديع بعد فترة ليست بطويلة ، فبعد أن أتم مايقارب السنتين من عمره، استشهد والده في فلسطين عام 1948 . فكان أكبر آمالي عندما أفقد السيطرة على زمام الألم ، إننا نشترك في تلك النقطة. كلانا تذوّق مرورة اليتم المبكر، فأنا لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشر من عمري، وللمصادفة كلانا عوّضه القدر بأم مثالية ، أم دفنت عمرها لتكافح من أجل أولادها.
مع أنني انتمي لهذا الجيل لكن بكل صراحة أمهاتنا ومن قبلهم تليق بهم تلك التسمية، نحن جيل التفاهة والاستعراض ، على الرغم من أن ماعشناه لم يكن بسهل، لكن ماذا تفيد المخاطر إن لم يعتبر الإنسان؟

منذ طفولتي وحلم المحاماة يكبر معي ، كنت أكثر جرأة على المطالبة بالحق ، وعلى تعلم فن الكذب مبكراً ، في طفولتي لم يمر أول اسبوعٍ لي في روضة بالقرب من منزلنا ، حتى اتصلوا بوالدي وطلبوا المجيءٍ ليأخذ ابنته والقسط الذي دفعه ، كنت قد بكيت اسبوعاً كاملاً ، وبعد بكائي أصبح طلاب الروضة كالجنود يرددون ورائي مطالبين بالعودة إلى المنزل ، تم فصلي من الروضة .. تخيل كمية التمرد التي تملكه طفلة في قلبها .
ورغم كل هذا التمرد كان التّفوق يرافقني وحلم الكتابة ايضاً، اذكر من أسئلة الاختبار الذي يقدمونه على الأطفال هنالك سؤال عنوانه أسرد قصة ، ومهمة الطفل أن يسرد قصة على ذويه وهم ينقلون كلامه وحتى أخطائه إلى الورقة ، اخبرتني أمي أن أخوتي رغم ذكائهم كانوا يقفون أمام هذا السؤال ولربما يتكلمون ما يكمل سطراً أو أكثر بقليل ، أما أنا فكنت أسرد عليها قصة من وحي الخيال باللغة العربية الفصحى ، كانت تتفاجئ أنني أعرف متى توضع النقطة والفاصلة . إنه القدر ، وأنا من أكثر المؤمنين به ، وكان والداي قد عوّدونا أنا وأخوتي أن نعتمد على ذاتنا بالوظائف ، كانت تقول أمي دوماً "علامة جيّدة بتعبك أفضل من علامة ممتازة بتعبنا" .
وهذا كان شيء غريب بالنسبة لمدارسنا ، وبالأخص في المرحلة الابتدائية ، اذكر عندما كنت في الصّف الخامس ، طلبت منّا مدرسة اللغة العربية موضوع تعبير عن فصل الرّبيع ، يومها عدت إلى المنزل ، وجلست على مكتب والدي، كان قد انتهى من الكتابة وذهب ليحضر التلفاز ،
اذكر ذلك اليوم جيّداً ، كان قد ترك على المكتب لفافة من التبغ العربي ، وكأس من المتة مع دبس الرّمان .

مسكت قلمه وبدأت اكتب وكأن الربيع يجلس أمامي ، انتهيت من الكتابة واشعلت سيجارة ثم أخذت شحطة تنم عن حبّي لكل مايفعله ، سعلت كثيراً ولكن كنت مستمتعة انظر إلى أوراقه واقرأ كتاباته ،
كان يكتب يومها مسلسلاً إذاعياً وأحد شخصياته إسمها سلمى .
وصلت المدرسة و عرضت موضوعي على آنستي ، نظرت إليّ بغضب وقالت "ألم أقل لكم اكتبوا المواضيع بأنفسكم دون مساعدة !" حاولت أن أخبرها إنني لست بحاجة لمساعدة أحد ، لكن بعض البشر لا يعرفون معنى الموهبة ، ولا يدركون قيمتها ، ليس كل كاتبٍ بكاتب ، إنها فقط الموهبة التي تعطيك القدرة على الإبداع.
عدت إلى المنزل وكان الإحباط يكاد يمتص دمي ، دخلت إلى مكتب والدي ، جلست بقربه واخبرته بما حدث
بجانب ذلك الرّجل كنت أعرف معنى الأمان ، يا إلهي كم هو عظيم أن تتكأ على كتفٍ وأنت متأكد أنه لن يميل !
ابتسم ووضع يده على كتفي وقال " اذكر عندما كنت في المدرسة ، قدّمت موضوع إلى أستاذ اللغة العربية ، يومها احتضنني وقال لي إن كان هذا الموضوع من مخيّلتك دون مساعدة ، ستكون كاتباً في المستقبل "
لا تحزني فإن موقفي يشبه موقفك ، لكن الفارق الوحيد هو طبيعة الشخص الذي يقابلنا ، ومهما كان رأيه فلا يمكن أن يلغي حقيقة مانملك .. إنها الموهبة.
أما بعد غدوت أكثر صلابة عندما وجدتك بين عروقي ، عذبتني الحياة قليلا يا والدي، وحتى هذه اللحظة بعد أن
وصلت إلى السنة الأخيرة من فرع الحقوق، مازلت أبحث عن الحق! أحقاً سأتمكن من أن أكون جزئاً ينقذ الأرض؟!
عندما سيأتي سرب عصافير ليرفع دعوة على من يقطع الأشجار، ألن تكون قد غدت أغصانها حطباً في مدفئتي !
كيف سآخد بحق رياح الخريف وأنا نفسي من أغلق النوافذ في وجهها؟
جميعنا مذنبون في هذه الحياة، الإنسان وحش حقيقي يقوى على جميع أنواع الظلم، يتكدسون في المحاكم وهم بأنفسهم ظالمين، ولا يقوى أحد منهم على محاكمة نفسه، أي شخص هنالك ستراه يلبس وجه الضحية..لن ترى أحد يحاكم نفسه، فالإنسان بالفطرة يتملكه الغرور و يرفض الانتقادات حتى ولو كانت بينه وبين نفسه..يشعر باللذة عندما يلبس دور الضحية التي لا تخطأ ، نعم إنها أنا..طفلتك المدللة سلمى ، أصبحت أفكر وأكتب وأحزن وأحب ، ومازلت أحبك ياوالدي.

تعثرت كثيراً حتى أصبح لي وجود، كنت أمشي وقلبي كجندي يحارب بيد واحدة..والآن أنا مزيجٌ من القوة والصبر ، لا وجود لقوة بدون أن تؤمن بنفسك. ولا وجود لهذا الإيمان إلا وترافقه القناعة. أي أن يقتنع المرء بواقعه ويسمع آلامه ويتقبلها..

أحببت نفسي كثيراً ولم يكن لدي مغريات وحتى الآن لاشيء يغريني ولا أشعر بالانبهار ، شعور المفاجأة أصبح مصطنعً على تعابير وجهي..أقنعتي تلفت من كثرة استعمالها ، كنت أضحك كثيراً وأغني لآلامي حتى تنام.

لم أكن أبالي لشيء ولا حتى للمستقبل ، كنت ابحث عن السعادة المطلقة، وحتى الآن لم أجد لها أثراً ! ومن ثم أصبحت استرق لحظات السعادة، أنظر لمرآتي وأرى ملامحاً لا تشبه قلبي، كيف لكل هذا الانهيار أن يتماسك؟

كنت أخاف من لحظات ضعفي فبعدها كان دائما مصابٌ يجرح قلبي ليأكد لي بأن قوتي لم تمت،

كنت طفلة تحب الجميع وتثق بمحبتهم، فكانت وحدتي بفقدانك وكأن للسماء يدٌ وصفعتني بها على وجهي!

الوحدة هي يجلس قلبك وعقلك ويعترفان بأخطائهما ، في طفولتي، كنت أتحدث مع ألعابي، وبعد وفاتك حتى مع نفسي لم أكن أريد التحدث ، كانت أول جلسة لي مع نفسي بعد سنة من فقدانك، يومها سألتها، هل فعلاً تريدين البقاء بهذا الانكسار! هل سيكون والدك سعيد وأنتِ في هذا الحداد، خجلت من نفسي كثيراً، قررت أن أحافظ على ماتبقى مني، وأدركت أن عليي أن أحارب في هذا العالم ، تعلمت أن أخفي الدخان الذي يتصاعد من رماد عقلي وهو يحترق .. كنت أشعر ومازلت حتى هذه اللحظة بأن عقلي مقسم إلى جزئين، لا أستطيع التحكم بأوقات عملهما، يتضاربان في الأفكار حتى أصاب بالصداع،

عند كل تضارب في عقلي..يتلقى قلبي درس أبدي.

كأن أحدهم يضع جمراً على أخطاء قلبي، فلا يتجرأ على إعادته، خوفاً من التحول لرماد.

في مرحلة المراهقة ، كنت مغمورة بنوعٍ من الظلمة الكئيبة ، لك تكن سيئة بالعكس..اعطتني دروساً كثيرة ، وتركتً ندبات في قلبي كلما اذكرها ابتسم ، لكن فكرة تكرارها ترعبني، تماماً كمن وضع يده على الجمر ظنّاً أنه يلتقط نجمة مضيئة،بعد أن يجرب ألم الاحتراق كلما نظر إلى النجوم سيحضر لذاكرته ذلك الألم.

ندبات الجسد هيّنة أمام ندبات الرّوح فهي لن تُشفى ، أنت من ستتأقلم ، ومهما تظن بأنك نسيت ، ستمر بلحظات يستولي الظلام على كيانك

وسيخترقك من تلك الندبات التي تركت ممراً في روحك لعابر السبيل، وفي الوقت ذاته أنت تشتكي الألم وبنفسك من تحفر تلك الممرات بلسانك ، فكما يقول المثل :
"سلامة الرأس في حفظ اللسان"
هل حقاً لايزال البشر يتكلمون عن نقاط ضعف روحهم أمام الغريب !؟
صديقك لا يشترط أن تتكون بينكما صداقة روحية ، فأنت تزيد ألمها عندما تتكلم عن جراحها .
لروحك أمانة عليك فلا تكن واشياً، إنها الأمانة التي اختصرها والدي عندما كتب في قصته "**الاختراق**" :
في المرّة الأولى يضربونك حباً بالضرب والتّشفي،وفي المرات التالية يضربونك لتعترف. ولكن بانتظار ما قد يقع بين يوم وآخر عليك أن تعلّم لسانك الصبر، كلها ساعات من الألم وتمشي، يكفي أن تشغل نفسك بالتفكير في مايخفف عنك وطأة الاحساس بالألم، وستكتشف حينذاك قوّتك كإنسان
أمامك كل الأشياء الجميلة في العالم لتحلم بها وتنتظر وقوعها.أما الجلّاد فماذا لديه؟ دورة سيأتي ثانية وثالثة،من يدري؟ عليك أن تتقن فن تحمل التعذيب ولو أدى بك الأمر الى الموت.
إنها الأمانة . أتعلم مامعنى الأمانة؟! يقولون إنها عرضت على الجبال فلم تتمكن من حملِها وحَملَها الإنسان.
في بقع التخلف ، كل إنسان يعتبر مجرماً حتى يثبت العكس ، واحياناً لا يمكن اثبات العكس، هل تعلم ياوالدي أنك فارقت الحياة وأنت متهم؟ تهمتك واضحة ، لأنك أورثتني مبادئ يعاقب عليها القانون ، طبعاً لا أقصد قانون حمورابي ، بل قوانين هذا الزمن الصعب ، حيث لا معنى للبراءة ، كيف للمرء أن يكون بريئاً وهو من عشاق الحياة ، يكفي يا والدي أن يحاول المزء الانتقال من مرحلة الكائن إلى مرحلة الإنسان ليصبح متهماً ، فاذا تمّ هذا التحول ، تقرع أجراس الخطر ، وتبدأ الضباع بشحذ أسنانها ، وتشرع الذئاب بتطويق حروف الألسنة ، لأن التحول إلى إنسان يعتبر من الأمراض المعدية التي تشكل خطراً على السلامة العامة لذلك خصصّوا له ميزانة لبناء السجون أكبر من ميزانية التعليم .

في إحدى الليالي التي اجتاحها الاكتئاب ضيفاً ثقيلاً ، تمددت على سطح منزلنا ، أراقب النجوم وأفكر بالمسؤولية ، ماهو العمر المناسب لتحمل المسؤولية ؟ أن تصبح شخصاً مسؤولاً في الحالة الطبيعية هو قرارك ، أما المسؤولية التي ثقلت روحي لم تكن نتيجة قرار ، كانت نصيب ، نصيب مفاجئ ينزل على شخص لا يقوى على حملها ، أنا لم أكن قادرة على مواجهة فقدان والدي ، ولا أدري كيف تجاوزت تلك المرحلة ، أو بالأحرى لا أدري بما تركت بداخلي من ندبات ، بفقدانه المبكر أصبحت شخصاً مسؤولاً ، ولكن حزينة.. محطمة من الداخل ، إنما فقط تأقلمت .

وجدت نجمة تنظر لي ، كأنها تفتخر لكوني إنساناً حياً ، متوازنة نفسياً على الأقل بشكلٍ مقبول ضمن هذه الآفة من الأمراض والعقد النفسية التي تواجه مجتمعنا ، أغمضت عيني متشكرة مودّتها ، حتى بدأت دموعي تتساقط ،

وعادت إلى ذاكرتي قصة اعتقال والدي في سجون حافظ الأسد ، كنت أسمع كثيراً عن تلك السبع سنوات التي عاشها دون أن يتذوق طعم الحرية ، تذكرتها منذ بدايتها .. وكنت قد سمعتها من والدي ، ومن أمي التي تحفظ تفاصيله بدقة مخيفة ،

في إحدى الليالي الماطرة ، قرع جرس الباب ، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ، وبحكم صداقات والدي لم يتوقع إلا مجيء أحدهم إلى زيارته ، نهض بتثاقل ، الجرس يرن ثانية ، وحين فتح الباب ، فوجئ بأربعة رجال ، ثلاثة مسدسات وبندقية ،

لماذا تكثر الأسلحة في هذه الأيام ؟

بادره أحد الرجال متسائلا عن هويته ، وبالطبع كلن يسأل سؤال الرجل العارف ، وبرقة ليست مألوفة ممن يحمل سلاحاً ، طلب تفتيش البيت

-تفضلوا ، وفتّشوا على راحتكم .

أجابهم والدي ، ثم دخل ثلاثة رجال والرابع ظل واقفاً في الخارج للحراسة ، وفي الصالون سألهم عن أي شيء يفتشون ..لكنه لك يتلق جواباً ، أجالوا النظر في محتويات الصالون ، دون أن يلمسوا شيئاً فيه ، ثم التفت أحدهم إلى والدي وقال :

-في الواقع نحن لا نربد إجراء تفتيش ، وكل مافي الأمر ، المعلّم يريد أن يراك

.وبشيء من الغباء أجابه والدي:

-لماذا يريد رؤيتي؟ فأنا لا أعرفه !

أوشك رئيس الدورية على الضحك ، لكنه تمالك نفسه وقال :

-كلها خمس دقائق يا أستاذ، وتعود إلى البيت .

أدرك بأن عليه الرّحيل ، وطلب من رئيس الدورية أن يسمح له بارتداء ثيابه ، ثم أخذ بعض النقود ،ثم خرج برفقتهم ، عندما قطع عتبة الباب ، أحس بأنه يذوب ، يتضاءل ، وحجمه يصغر ، وفي اللحظة التي بدأ بها المصعد الكهربائي يهبط بهم ، استرق نظرة إلى المرآة في داخل المصعذ ، ولمح وجهه يحتقن بالاحمرار والغضب ، ومن الخوف من المستقبل ، لأنه كان يعلم بأن العديد من الأشخاص حدث معهم مثل مايحدث معه ، ومن ثم انقذعت أخبارهم .

-تفضل يا أستاذ

فتح رئيس الدورية باب المصعد ، وكرّمه بالخروج قبله ، كانت نسمة رطبة تستقبله تحت رذاذ ناعم من المطر ، حيث كلنت في انتظارهم سيارة بيجو بيضاء ، وبداخلها يائق يسمع شريطاً من العتابا ويدخن .

-أغلق المسجلة ياحسن !

أمره رئيس الدورية ، وفتح الباب الأمامي وجلس بقربه ، بينما حُشر والدي بين عنصرين في المقعد الخلفي ، وبدوره سألهم :

-إلى أي فرع أمني تريدون أخذي؟

ردّوا على سؤاله بالصمت ، وراح يواسي نفسه بأنه ليس المعتقل الأول ، ولن يكون الأخير ، كانت السيارة تقوده إلى حيث لا بدري ، ورغم وجوده ببن حارسين ، تمكن من استواق النظر إلى خارج السّيارة ، كانت زخات المطر توالي سقوطها برتابة ، وقطرات الماء تبرق تحت وهج المصابيح ، تنفّس بعمق ، وكان لا يزال يسترق النظر إلى الخارج ، وكأنه يبحث عن شاهدٍ غير المطر والدرب ، ليشهد على اعتقاله ، كان الشارع خاوياً ، ومن بعيد رأى كلباً يهيم في الطريق ، وهو يرفع ذيله ابتهاجاً بالمطر .

أظن أن والدي قد أحس بالحسد تجاهه ، وبنوع من الاعتزاز شعرت أن مايةمع بينه وبين ذلك الكلب، الوفاء .

-ألو..نعم..نعم..سيدي .. لا لا .. مسافة الطريق .
أعاده صوت رئيس الدورية إلى واقعه الراهن ، فهمس له :
-ألا يحق لي أن أعرف إلى..
قاطعه بسرعة وقال:
-ستعرف كل شيء في حينه ، ثم تنهد وأضاف بلهجة لا تخلو من الأسف :
-نحن نحترم الصحافة ، ولكم كما يبدو إن بعضكم يبالغ في تفسير الأمور ، وأوامري تقضي بعدم فتح أي حديث معك ، لذلك أرجوك أن تكف عن طرح الأسئلة .
آه يا والدي .. أي شيء يساعدني على النسيان ؟ وهل حقاً أريد أن أنسى ؟ أنا أتخيل كل كلمة أكتبها ، وكأنني كنت أنا الشاهد الآخر غير المطر والدرب ، وذلك الكلب على اعتقالك .
-خفف السرعة ياحسن ، فالمطر يشتد !
قال رئيس الدورية للسائق ، وفي المقعد الخلفي كان يجري حواراً صامت بين فوهة بندقية رجل الأمن وخاصرة والدي، يا إلهي !! ماذا يمكن أن تقول الخاصرة للسلاح ؟؟
بعد قليل بدأ يستعيد هدوءه ، كان عليه أن يباشر في ترتيب أفكاره استعدادا لمواجهة الأسئلة التي تنتظره ، ولكنه لم يتمكن تماماً من طرد قلقه ومخاوفه ، كان خوفه يختلف عن خوف أيام الطفولة التي عشناها ، حين كان الخوف يُختصر بحكايات عن العفاريت والضباع ، كان لذلك الخوف لذّة مخدّرة تجلب النوم إلى الأجفان ، أما هذا الخوف الذي ينتابه الآن ، هو من النوع المثير للأعصاب ، إنه يجعل من العين حدقة واسعة للرؤية ، في أيام زمان كنت احتضن خوفي اللذيذ ، وأغفو ورأسي يستريح فوق ركبة والدي .. لقد أدركت أن ضباع حكاياته كانت تختلف عن الضباع التي واجهها ، تلك أصبحت جزءاً من العالم القديم ، وهي لا تقارن بضباع اليوم ، كانت تسكن المغائر والكهوف وهي أقل شراسة من ضباع اليوم ، كانت تتميز بروائحها الكريهة ، أما ضباع اليوم تخفي روائحها بالعطور الباريسية ، وقد هجرت البرازي واستوطنت في أفخر المنازل ، وتمرّست على القتل ومصّ الدماء، وهي تحرص على تنظيف أسنانها بعد كل وجبة .
-تمهّل ياحسن ، وقف عند المدخل تماماً
تباطأت السيارة ، ثم توقفت ، نظر حوله بقلث ، كان الشارع عبارة عن حيّ سكني فاخر ، تظلله الأشجار ، وعلى يساره يجري نهر كطفل حافي القدمين ، يمشي بحذر خشية ايقاظ والده من النوم ، هنا لم يكن يسمح للفقراء إلا بالمرور .
-هل يوجد هنا مركز للتحقيق ؟
سأل والدي قائد الدورية باستغراب ، لكنه لم يجيب ،بل قال له آمراً :
-مد يديك نحوي .

رفع يديه باستسلام ، وللمرة الثانية في حياته ، تذوق طعم الأصفاد ، حيث كانت المرة الأولى عندما كان طالباً في الثانوية ، وكان ع رأس مظاهرة طلّابية ضد حكم الانفصال .

-أنا معكم ، فلماذا القيود؟

تجرأ وسأله ، وسمعه يتمتم بصوت جاف :

-إنها الأوامر .

قال ذلك ، ووضع فوق عينيه قطعة من الجلد ، ثبّتها حول رأسه بخيطٍ من المطّاط ، ثم ساعده على النزول من السيارة ، ومثل أي ضرير حديث العهد بالعمى ، اصطدمت قدمه بطرف الرصيف ، وتحت وابلٍ من المطر ، دخل برفقة رئيس الدورية إلى بناءٍ ما ، وسمعه يسأل أحدهم

-هل المعلم في المكتب ؟

أجابه الآخر بلهجة ساخرة :

-أجل..وهم بانتظار الأستاذ!!

تأبط قائد الدورية ذراع وديع ، وصعد به درجاً ، وفي منتصف الدرج سلّمه إلى رجلٍ آخر تابع الصعود به .

اشعلت سيكا وأنا مازلت أراقب النجوم ، وأروي لها قصة اعتقال والدي ، وبلمح البصر ، عبرت في ذهني جملة للثائر الكوبي "جوزيف مارتي" عندما كان يدرس في الولايات المتحدة حيث قال :

-لقد عشت داخل الوحش، وأعرف أحشاءه .

وهو الآن في طريقه لاكتشاف هذه الأحشاء ، وفي رواقٍ طويل تخلىّ الرجل عن ذراعه ، ودفعه ليمشي أمامه صارخاً به :

-حا! حا يا حمار حا..

انفجرت من أمامه عدّة ضحكات من حراس مكتب المعلم ومعاونيه ، فتوقف عن السير وسمع الرجل يخاطب رفاقه :

-لقد حزن الحمار !

ثم دفعه بقوة إلى الأمام وأضاف ساخراً :

-من رأى منكم في حياته حماراً حساساً ؟

وبعد ذلك شعر بضربة على مؤخرة رأسه ، فصرخ غاضباً :

-أتحسب نفسك بطلاً حين تضرب رجلاً مقيّد اليدين ومعصوب العينين ؟!

وبصوت رصاصي أمره أحدهم :

-اخرس ياكلب .

فلزم والدي الصمت ، ليس لأنه كلباً ، بل لأنه أدرك عقم الحوار مع هكذا نماذج تدربت على القتل والضرب وإطاعة الأوامر ، وبعد خطوات فقط ، توقفوا عن السير ، وسمع نقرات ناعمة على باب ، وعلم بأنهم يقفون على باب مكتب

المعلم ، وقبل أن يدخلوه إلى المكتب ، شعر بأن مرحلة الاعتقال الأولى قد انتهت كبداية ، وخلف هذا الباب ، ستبدأ مرحلة التحقيق .
تخيلت مشهد والدي ، وكمية الاحمرار الذي يسيطر على وجهه ، وتذكرت حديثاً دار بيني وبين أحد أصدقائه ، أخبرني أنه ذات يوم كانوا يسهرون برفقة والدي ، وكان يتميز عند شربه الخمر باحمرار وجهه ، فسأله أحد الأصدقاء
-وديع .. لماذا أنت الوحيد يلي وجهك يصبح أحمر اللون عندما تشرب ؟
وسط ضحكات الأصدقاء أجابه والدي
-لأنه وحده دمي النقي ، أما أنتم فدمكم فاسد ..
ابتسمت لهذه الذكرى ، ثم بدأ المطر يهطل على جسدي ، كأن السماء تطالب أن أكمل قصة الاعتقال .
مع الخطوة الثانية داخل مكتب المعلم ، شعر بملمس السجاد الفتخر تحت قدميّه ، ودخلت أنفه رائحة السيجار الكوبي ، ممزوجة بروائح العطور الباريسية، وسمع أصواتاً خافتة أقرب إلى الهمس .
هناك تركه الرجل الذي ادخله المكتب وغادر مسرعاً ، وأغلق وراءه الباب ، ثم جاءه صوت :
-اقترب قليلاً ، الكرسي على يسارك .
شعر بالاحراج وكأي أعمى بحث عن الكرسي حتى وجده ، جلس وهو يذوب خجلاً
-هل أزعجك أحد؟
سأله أحدهم بصوت خشن ، فقال بسرعة :
-لا .. ولكن لماذا تلك الطماشة وتلك القيود؟
ردّ الصوت الخشن بهدوء:
-إنها إجراءات شكلية لا بدّ منها .
كانت المرة الأولى التي يجلس فيها أمام أشخاص يرونه ولا يراهم ، وكم تمنى لو يرى نفسه في المرآة ، كان قد أخبر أمي بأنه كان يرتدي سترة جلدية ، وسروالاً من الجينز ، وفي قدميه حذاء رياضي قد بلغ عامه الثاني ، كان يشعر بضيق من تلك الأصفاذ ، فلم يدر أين يذهب بيديه معاً ، لذلك تركهم في حضنه كجثتين صغيرتين .
-بصراحة ..هذا الموقف لا يسرّنا ، ولكن أنت من وضع نفسه فيه ، وآمل أن تفهم ذلك .
قال صاحب الصوت الخشن ، وعلّق على كلماته صوت آخر :
-مصيره أن يفهم ياسيادة العقيد .
عاد العقيد إلى الحديث ثانية :
-قبل حوالي السنة كان صديقك الدكتور يجلس مكانك ، ومنذ يومين كان صديقك الآخر عبد المسيح يجلس هنا .

-عفواً سيدي.. علينا أن نذكره أيضاً بصديقه في المهنة الصحفي عبدالله.
-أحسنت يامقدم أحمد ..المهم هل تفهم معنى كلامي؟
همس والدي بكلمة واحدة :
-أجل.
وتابع العقيد موضّحاً :
-كان يجب علينا أن نعتقلكم قبل سنوات ، ولم تستوعبوا معنى أن يتسع صدرنا لكم ، المهم عفى الله عمّا مضى ونحن أبناء اليوم ، وكل مانريده منك هو التعاون.
وقبل أن يسأله والدي عن معنى التعاون ، قال آمراً :
-جهّز الشريط يا مساعد هارون .
-أنا جاهز ياسيدي.
سمع طقطقة أزرار آلة التسجيل ، وبدأت الاسئلة عن اسمه وعمله ، وحين أجابهم بأنه صحفب ، قال المقدم أحمد :
-طزْ
وهنا تدخل العقيد قائلاً للمساعد هارون .
-هارون ! إمسح هذه الكلمة فوراً ، لأن سيادة اللواء سيستمع إلى هذا الشريط بناءً على طلب.
-آسف ياسيدي، لقد خرجت الكلمة مني بشكل عفوي .
اعتذر المقدم ، ومسح هارون كلمة طر ، وبدأ سيل الأسئلة ينهمر عليه ، سألوه عن دراسته ، وإخوته وأعمامه وأخواله، وعن أمه وأبيه ، في محتولة للتأكد من خلّ العائلة من أي معارض ، وفجأة استفاقت بداخله الروح الحقيقية لمهنة المتاعب التي لا تخلو أيضاً من المرح ، فقال بهدوء:
-هناك إثنان من المعارضين لكم في العائلة .
وبشيء من السرور سأله العقيد :
-من؟ اريد الأسماء! قل من هما .
وبالهدوء ذاته ، قال له :
-هناك استحالة في اعتقالهما لأنهما ..
وهنا قاطعه المقدم أحمد بحدة صارخاً :
-أين هما ، أين يختبئان ؟؟ هل فرّا خارج البلد؟؟
وبلهجة لا تخلو من السخرية أجابه :
-الأول هو أبي الذي استشهد في الجولان ، والثاني هو عمي الكبير الذي استشهد في إحدى معارك الشيخ صالح العلي ضد الفرنسيين .
للصراحة ، كان تصرف غبي أن يخطر في ذهنه أنه من الممكن أن يتفهموا معنى الدعابة المقصودة ، وبعد سيلٍ من الشتائم ، مسحوا كلماته عن الشريط ، وسأله العقيد :

-هل أعجبك ذلك؟ نحن في جلسة تحقيق رسمية، وحاذر أن تعود إلى شيء من هذه التفاهات

-دعني أدعس على رقبته ياسيدي.

قال المقدم أحمد بحقد ، وردّ العقيد بعدوء :

-لا يا أحمد .. نحن نريد أن نفهم منك الآن مدى تورطك .

-ليس لي أي علاقة مع أحد .

أجابه والدي بهدوء ، فصرخ غاضباً :

-لا تكذب ! احترم ماضي أهلك وأقسم لك اذا تعاونت معنا فلن تنام الليلة إلا في بيتك .

كاد يود أن يخبرهم بأنه مثل الحلزون ، يحمل بيته على ظهره ويترك أثراً وراءه أينمت سار على الأرض ، لكنه لزم الصمت ،بينما قال المقدم أحمد :

-لدينا من يعترف بأنك منظم معهم ، لذلك لا فائدة من الإنكار ، وأضاف العقيد:

-اعترف بما لديك ودعنا نذهب جميعاً إلى بيوتنا .

تنهد وديع بعمق ، وأكد لهم مرة أخرى بأن لا علاقة له بأي تنظيم ، فقال العقيد بنبرة متسائلة لا تخلو من التهديد :

-ألا تريد الاعتراف بالتي هي أحسن ؟؟ فكر بأهلك يارجل .

وللمرة الثالثة قال لهم بإصرار :

-واجهوني بمن شئتم ، واذا ثبت لديكم أن لي علاقة مع أحد..

قاطعه العقيد محاولاً كبت غضبه :

-أنت كاتب وصحفي ، ولدينا معلومات مؤكدة بعلاقاتك ، فهل تريدنا أن نصدق بأنك لست منظماً معهم ؟

تجرأ وقال له :

-ولماذا لا يعقل ؟ أنا اعترف بأن لي علاقات مع بعضهم ، ولكنني لست عضواً في أي تنظيم .

وهنا تدخل في الحديق لأول مرة منذ بدء جلسة التحقيق ، رجل ثالث كان يراقب ويستمع إلى الحوار ، فقال له بلهجة ودية :

-أنا ابن منطقتكم ، واعرف أمك أطال الله في عمرها .

وعلق المقدم أحمد بسرعة :

-لولا حضورك ياسيادة العقيد لعرفنا كيف نجبره على الاعتراف ، فقال العقيد الجديد :

-هل سمعت ؟ لقد جئت لأحضر هذه الجلسة ، فأنا أكره أن أراك تهان وتضرب ، أليس كذلك يا أخ نزار ؟

فقال نزار :

-بصفتي رئيساً لهذا الفرع ، لن أسمح لأحد بأن يضربه ، ولكن في المقابل نريده أن يتعاون معنا ، ببساطة هم يستطيعون زجك في السجن بتهمة كتم المعلومات ، وليسوا بحاجة ليتأكدوا بأنك منظم أو لا ، لذلك لا تعقد الأمور .
وبلهجة لا تخلو من السخرية أضاف :
-مند البداية كنا نقول لأنفسنا ، هؤلاء مجموعة من الكتاب والصحفيين ، ولهم حساسية خاصة ، كنتم تجلسون حول موائد الشراب ، وتأخذون راحتك بإطلاق الشتائم علينا ، ومع ارتفاع وتيرة الشرب ، كان بعضكم يبكي على البلد ، وقد تنقلب الجلسة في نهاية المطاف إلى لعبة بوكر ، أليس هذا مايحدث معكم ؟
صمتك لن يفيدك في شيء، أننم تستغلون مناخ الحرية وتقفون ضدنا حتى او كانت مواقفنا صائبة .
ذكرني موقف والدي بحكمة صينية تقول :
كيف تتوقع إنصافاً للقمح من محكمة قضاتها الدجاج ؟
-بصراحة ، أنا جئت إلى هنا لحمايتك بإيعاز من سيادة اللواء، وأنت تعلم عمق الصداقة بينه وبين صهرك ، لذلك لا داعي للعناد ، قل ما لديك ودعنا نذهب إلى بيوتنا .
قال العقيد الآخر ، وفجأة تساءل العقيد نزار :
-ألا تؤمن بالحوار ؟ منذ كم من الوقت ونحن نتحاور معك ؟ أليس من المعيب ألا ترى أعينكم سوى الأخطاء؟ هل يعقل أننا لم نفعل شيئاً يستحق الإشادة به؟!
وبحماسة شديدة بدأوا يتحدثون عن منجزاتهم ، يتحدثون ويتحدثون ، و والدي يكاد أن يصرخ متسائلاً ؛
ماذا عنا نحن ؟ ألا تروننا كيف نموت قهراً ونحن نرى شراهتكم في بناء القصور وامتلاك الأراضي وتكديس الأموال ؟
-نحن نميّز بين النقد البنّاء ، وبين النقد بقصد التخريب والتجريح .
قال العقيد نزار ، وعلّق على كلامه المقدم أحمد :
-النقد الذي يتقنه هؤلاء ياسيدي يحمل معنى اللدغ ، لدغ الأفاعي ، ولن يلومنا أحد حين نسحق تحت أقدامنا رأس أفعى .
ومرّة أخرى حاول العقيد الآخر ترطيب الجو قائلاً:
-نحن نحب الثقافة والمثقفين ، شريطة أن لا ينصّب نشاطهم في بوتقة أعداء الوطن .
عبرت ذاكرتي جملة قالها غوبلز المساعد الأول لهتلر : عندما أسمع كلمة ثقافة أتحسس مسدسي .
-نحن مع الأدب الملتزم ، وأن تكون كاتباً خارج هذا الالتزام ، فلن نتساهل معك أو مع غيرك ، نحن قادرون على سحقكم في أي وقت .
قال العقيد نزار ، ثم انتقا من كلمة نحن إلى كلمة أنا ، وراح يتحدث عن حبّه للمطالعة ، يتحدث بلغة الأنا وكله ثقة بأنه فوق كل ذي علم.

توقف عقلي عن استرجاع تلك الذكريات ، تمالكت نفسي ، ونهضت بتثاقل ولم أكن أشعر بمدى ثقل ملابسي ، وأثناء نزولي إلى المنزل ، تذكرت كلمة سحق ، وعادت إلى ذاكرتي كلمات المناضل اليوناني -ميكس تيودوراكس- حين محاكمته أمام جنرالات بلاده ، يومها قال رداً على تعديداتهم :

-من سوء حظكم أن الولايات المتحدة لم تخترع دبابة قادرة على سحق الأغاني والموسيقى ، الدبابة يطالها الصدأ مع الزمن ، بينما يبقى الفن خالداً .

هذه الذكرى السريعة لكلمات تيودوراكس عززت ايماني بنفسي ، وأثناء نزولي الدرج شعرت بأنني أحمل فوق كتفيّ ملايين الرؤوس ، وفي صدري كانت نبضات قلبي ترقص على أنغام المزامير وقرع الطبوب ، كم هو جميل ورائع أن ينشر الفرح الكوني عباءته فوق سماء الأرض ؟

في أيام طفولتي كنت أقف إلى جوار والدي ونحن نتفرج على عرسٍ ليلي قريب من منزلنا ، ووسط الغناء وقرع الطبل ، سألت أبي:

-بابا، هل يصل صوت الطبل إلى القمر ؟

نظر إلى القمر ، ثم داعب شعري وقال :

-صوت الفرح يصل إلى كل مكان.

دخلت المنزل ، اتجهت إلى غرفة أمي ، كان صوت نفسها يدل على أنها في نومٍ عميق ، الأغطية تعلو وتهبط فوق جسدها ، كنت أشعر بالسعادة عندما أجدها نائمة ، فهي لا تنام عادةً ، متى مادخلت أجدها مفتحة العينين ، وهي أيضاً ما مضى عليها لم يكن بالسهل ، بعد وفاة والدي أصبحت يتيمة مثلنا .. ومنذ مايقارب الثلاث سنوات ، دخلت في دوامة الصحة ، والأمراض تتكاتف على الشخص الحزين ، تدرك أن بإمكانها أن تقضي عليه بسرعة ، لكنها صبرت كثيراً ، كلما تقف على قدميها ، تأتيها ضربة غدرٍ من صحتها ، تسطحها بالأشهر، والآن أصبحت بصحة جيدة نسبياً ، وصبرها ذلك يذكرني بصبر سيدنا المسيح ، في كل لحظات ألمها ، لم تقل كلمة -آخ ، لكننا نعرف ايماءات الألم ، فكيف اذا سكنت وجه أمي ؟

اذكر في إحدى العمليات العينية التي اجرتها ، قال لها الطبيب المخدر بأن روحها جميلة ، وجميل الروح لا يكسر .

في كل مرةٍ كانت تدخل غرفة العمليات ، كانت روحي تتمزق ، اذكر عندما أخذت جرثومة العمليات في عينها ، والتي كانت ناتجة عن خطأ طبي ، عدنا إلى المنزل وكنا نضحك ولا ندري بالقادم ، في اليوم التالي ، بدأت تصرخ ألما وكأن عينها تخرج من وجهها ، اتصلت مع الطبيب لم يرد ، ولا نعرف ماذا نفعل ، هل هو من الطبيعي أن تتألم أم لا ، لم يرد على مكالماتي حتى اليوم التالي، أخبرته بمدى الألم وبكل برودة دمٍ أجابني :

-لا بالطبع ليس طبيعي ، تعالوا إلى المستشفى .

وكأي خاروفٍ في طريقه للذبح ، ذهبنا إلى المستشفى ، اذكر مشهد عروقها كيف كانت تنتفض بشكل جماعي داخل جسدها من شدة الالتهاب ، وبعد أن وضعوا لها سيروم قبل أن تدخل غرفة العمليات مرة أخرى لإجراء غسيل للعين ، كان مشهدها حزيناً لا ينسى ، كانت ممددة كأي جثة ولولا عروقها ودمعة تتساقط بهدوء كي لا تحدث ضجيجاً ، لظننتها ميتة .
كانت المرة الأولى التي أثق بها بأحد طبّياً، بكن بعد أن أجرى لها ثماني عمليات ، تركها كأي مجرم انهى جريمته ، وفي لحظات الندم على بقائنا عنده ، كنت أعرف أن هنالك سبب جعلنا نستمر في طريقنا للذبح ، والذي هو الأمل ، كان ماهراً في الكذب ، وفي حقن جرعات الأمل للمريض وذويه ، كمن يداعب فريسته قبل أن يلتهمها ، لم تدخل أمي يوماً إلى العملية إلا وكنت متأكدة أنها الأخيرة ، خاصةً بما يملكه من شهادات داخل عيادته ، في الآونة الأخيرة لم أجد مريضاً راضياً عن نتيجته ، ولكن الغريق يتعلق بقشة ، ويصبح مغيّباً عن التفكير ، فقط يريد النجاة.
دخلت غرفتي ، وهي الجزء الأحب لقلبي في منزلنا ، كانت صغيرة ، بداخلها مكتبتان صغيرتان ، ومكتب وكرسي دوار ، و سريري الدافئ ،
كانت في الماضي مكتباً لوالدي ، كنت استيقظ أجده يكتب ، أقبله على رأسه واذهب لأبدأ يومي .
المرء تحتله الذكريات ، ولا يخرج منها سليماً ، في الفترة الأولى من وفاته ، كنت استيقظ فأصاب بصدمة أنه ليس على مكتبه ، وبعد برهةٍ أتذكر وفاته ، فأدفن وجهي في وسادتي معبرةً عن رفضي للواقع ، ولكن ماذا يفيد ، الأمر حتمي ، ولربما الذكريات تخفف شدة الألم ، لكن أشك بهذه الفكرة ، لولا الذكريات لما وجد الألم ، لماذا سأفتقد شخصاً لا تجمعنى به أي ذكرى ؟ كيف سأذكره ولماذا سأبكي عليه ؟
كانت غرفتي ممزوجة بالذكريات ، فعلى ذلك الكرسي الدوار ، وضعت "بدريسة" بيضاء اللون كان يلبسها والدي بشكل متكرر ، ومنذ ثماني سنوات حتى الآن لم تتحرك من على الكرسي ، والمفرش الذي يحمل فرشة السرير ، قد حمموا جثمانه عليه ، اذكر يوم وفاته ، اقترح عمي أن يحمموه على المقبرة ، واذكر غضب أمي بأنه لن يحمم إلا في بيته، فجلبت مفرش السرير ووضعته في منتصف الصالون ، يومها تمددت عليه بانتظار الصباح الأسوذ ، حتى جلبت أمي الريحان ونشرته عليه ، وعندما جفّ أعدته إلى غرفتي ، ولست أدري لما حتى الآن عندما اتمدد على السرير ، أشتم رائحة والدي ممزوجة بالموت .
أما أوراقه فجمعتها بصندوق كبير بجانب المكتب ، حسب وصيته التي كتبها في كتابه "بطاقات إلى أمي" والذي كتبه وهو بداخل السجن :

حين يلتوي عنقي
للمرة الأولى والأخيرة
ويكف قلبي عن الغناء
لا تغلقوا عيني
ولا توقظوني بالعويل
دعوني ممداً كرجل نائم
اتعبته اليقظة
وإذا طال بي الرقاد
لا بأس أن توسعوا لي
مكاناً في الأرض التي أحب
لأن جسدي
أضيق من أن يتسع لي
انزلوني برفق
إلى مرقدي الهادئ
ولا تهيلوا عليّ التراب
لطالما أحببت النوم في العراء
تحت لحاف من النجوم البراقة
كعيون الأطفال
دعوا مسدسي حيث هو
وكذلك أوراقي
وكل أشيائي الخاصة
فربما قررت العودة
ذات يوم

أعادتني هذه الوصية إلى قصة اعتقاله ، بكلمات موجزة أكّد لهم بأنه هو وأمثاله ، ضد العنف ، وضد الفساد ومع حرية الرأي ، وهذا يصب في خدمة المجتمع ،
وسمع العقيد الآخر يقول :
-هل سمعت يا أخ نزار ؟ ألم أقل لكم بأنه ليس معادياً كما تتوهمون ؟؟ طبعاً وهذا هو رأي سيادة اللواء .
وبعد ضحكة ناعمة ، تابع العقيد قائلاً :
-ولكن هذا لا يمنع بأن أقول بأن لسانه سليط بعض الشي، والآن أريد أن أعرف رأيك يا أخ نزال ؟
تنهد نزار تنهيدة طويلة وقال :
-في الواقع ليس لدينا أي دليل يؤكد ارتباطه بهذا التنظيم أو ذاك ، لذلك اعتقد بأننا سنفرج عنه خلال اليومين القادمين .
تجرأ وسأله :

-ولماذا ليس الآن؟!
أجابه نزار على الفور :
-غداً نرفع تقريراً عنك للجهات المختصة ونقترح إخلاء سبيلك وحتى يأتينا الرد ستبقى في ضيافتنا .
وجاءه سؤال من المقدم أحمد :
-هل ستخبر أحداً بأنك قد تعرضت للضرب والتعذيب ؟
-لا ..لن أتحدث بشيء لم يقع .
وبعد لحظات سمع جرساً صغيراً ، أعقبه دخول أحدهم إلى المكتب ، وسمع العقيد نزار يقول آمراً :
-خذه إلى الأسفل ، وحاذروا أن تسيئوا إليه.
-حاضر سيدي .
أمسك عنصر الأمن بيده ،. وساعده على المشي باتجاه الباب ، وسمع صوت آذان الفجر وهم يهبطون الدرج باتجاه الأسفل .

-الفصل الثاني-

على مدخل القبو ، كان يفكر بأن للواسطة أحياناً بعض الجوانب المفيدة ، ألم تمنع وساطة صهره مع رئيس الشعبة من ضربه وتعذيبه ؟

-انتبه .. لم يبق سوى درجة واح !

دخلوا في ممر .. وسمع صوت عامل المقسم يقول :

-المنطقة معك ..شرّف سيادة المقدم معك ..

تجاوز غرفة المقسم ، وفهم بأنه محتجز في فرع المنطقة الأمني .

وتذكر بأن أيمت ابن قريته يعمل في هذا الفرع ، وكان أيمن يقوم بزيارته في البيت بين الحين والآخر ، وهو نموذج للشاب الفقير الذي دفعته ظروفه للتطوع في جهاز الأمن .

-صباح الخير .. استلم ..

-من هذا ؟ وأين سأضعه؟

أوضح مرافقه حكايته باختصار ، ولم ينس أن يقول :

-هذا الموقوف مدعوم .. وحاذر أن تسيء إليه .

ضحك الآخر وقال بمرح :

-لو كان مدعوماً .. ما الذي يفعله هنا؟

فرد المرافق :

-رئيس الفرع شخصياً أوصى به ..فهل فهمت ياسيد حكمت ؟!

قال المرافق ذلك وتركه في غرفة حكمت ، وعلى الفور رفع حكمت الطماشة عن عينيه ، رفرف بأهدابه عدة مرات ، ونظر أمامه رأى حكمت مباشرة ، كان حكمت متوسط القامة ، أسمر اللون ، وله شوارب كثيفة ..ويبدو الذكاء يشع من عينيه ، كانت الغرفة تحتري على طاولة مكتب ، وخزانة حديدية ، وسرير عسكري مفرد ، وأربع كراسي.

-إجلس! لو سمحت .

أعجبته كلمة لو سمحت ، وبعد أن جلس حكمت وراء مكتبه ، أخرج من الدرج مفتاحاً صغيراً ، وفكّ القيد عن يديه ، ثم فتح دفتراً ضخماً يبحث فيه عن صفحة بيضاء وقال :

-هات كل مامعك ، أي شيء

أخرج رزمة مفاتيح من جيبه ووضعها فوق الطاولة ، وألحقها بعلبة سجائر مع قدّاحة ، وقرابة السبعين ليرة وقال له:

-هذا الذي معي !

تنهد حكمت بعمق وقال له بلهجة يشوبها أسفٌ مبطّن :

-أعطني ساعتك ، وكذلك شريط حذائك ، والحزام الذي حول خصرك .

نفّذ طلبه بسرعة ، كان حكمت يكتب ويهز رأسه ، بينما كان والدي يتساءل:

-كيف يصبح لبعض الأشياء الصغيرة في لحظة معينة أكثر من معنى ؟

شعر بأن معصمه قد أصابه الحزن لفراق ساعته ،التي هي تحتضن معصمي وأنا أكتب الآن .. وأن خصره سوف يضمر على فراق حزامه ، أحس فعلاً بمرارةٍ لها طعم العلقم تذوب في فمه وهو يرى أشيائه البسيطة تدخل السجلات الأمنية ، وبعد أن وضع حكمت الأغراض داخل كيس وكتب عليه اسم والدي، أودعه الخزانة ، واتجه نحو باب الغرفة ، وألقى نظرة سريعة إلى خارجها وعاد إلى مكانه وراء المكتب وقال هامساً :

-اسمعني ..أنا رقيب مجند ولا علاقة لي بما يحدث..

وحين رأى الدهشة في عيني أبي ،تابع كلامه هامساً:

-أنا أعرفك من خلال كتاباتك ، ثم أنني صديق لأبن قريتك الأخ أيمن ، وقد أوصاني بك قبل أن تصل إلى هنا ، أيمن يعمل على المقسم .

شعر بالراحة لكلماته ، وخاصةً عندما سأله :

-هل تريد الذهاب إلى التواليت ؟

-أجل ..

بعد أن ساروا عدة أمتار في الرواق ، ودخلوا ردهة تحتوي على مغسلة بدون مرآة ، وعلى يمينها لمح بابين لمرحاضين ، فتح حكمت احدهما ، وقبل أن يغلق الباب الخلفي ، أشعل حكمت سيجارة وأعطاه إياها ، وحين انفرد مع نفسه ، داهمته رغبة في البكاء.

-أي طعم لسيجارة في مرحاضٍ أمني ؟؟!

وقرر في سرّه بأن لا ينسى هذا الشاب أبداً ، إنه يخاطر بنفسه من أجله ، ومع النفس الثاني من السيجارة ، تذكر أيام المدرسة ، حيث كانوا يلوذون بالمراحيض ليدخنوا ، وفعلتها أنا ايضاً للصراحة .. كانوا يتقاسمون سيجارة واحدة ، وكان زملائه يخافون أن تصل تصرفاتهم إلك أسماع آبائهم عن طريق الموجه ، وكما كنت أنا كان والدي خارج هذا الخوف بسبب ان لا أب له ، وفي الحقيقة كان يشتهي أن يكون له أب مثلهم ليشعر بمتعة الخوف منه ، كان الجميع

قد استعاضوا له بلقب ابن شهيد بدلاً من ابن فلان ، لم يكن اللقب الجديد يعني له الشيء الكثير ، ومع مرور الزمن ادرك بأن والده استشهد من أجل بلادٍ ماتزال ضائعة ، فهم لماذا كانوا يكتبون له الخطابات ليلقيها في المناسبات ، كانوا يصرّون على تقديمه هكذا :

-الكلمة الآن لأحد أبناء الشهداء ، كان صغيراً على الفهم وكان يدهش من دموع أمه كلما سمعت كلمة فلسطين ، ولكنه بإحساس طفولي فهم بأن هذه الكلمة تستحق مثل هذه الدموع ، كانت سيجارته تشرف على نهايتها ، وحين اكتشفت أمه بأنه يدخن لم تضربه ، كانت تكتفي بالدعاء له بالهداية، لكنه بدلاً من ترك التدخين ، ترك المدرسة في الصف الثامن ، وذهب مع صديق له للعمل كصياد سمك .

-ارجوك أن تسرع ..

همس حكمت بحذر ، فغادر المرحاض ، ومع كلمة آسف ، أعاد حكمت القيد إلى يديه ، والطماشة إلى عينيه ، وقاده في رواقٍ طويل .

وادخله إلى مكان اشتم فيه رائحة أنفاس بشرية ، وسمع آهات، كان الجو خانقاً ، وقد شعر بأنه يمشي بين كومة من الأجساد الحية ، فتوقف عن الحركة كي لا يطأ أحد منهم ، وعلى الفور رفع حكمت الطماشة قليلاً عن عينيه ليرى أين يضع قدمه ، وأمام المشهد كاد يطلق صرخة رعب ، تخيل نفسه داخل مقبرة جماعية نهض موتاها ، ولم يجدوا من يعيدهم إلى التراب ثانيةً ، رأى عشرات الأشخاص يتمددون إلى جوار بعضهم في صالون ضيق ، وجميعهم مقيدون مثله وفوق أعينهم الطماشات أيضاً ، وبصعوبة تجاوزوا الصالون الجهنمي ، وعلى بعد متر واحد فتح حكمت باباً ، ودفعه بلطف إلى الداخل وهمس له :

-سأراك فيما بعد .

ثم أغلق عليه الباب ، أزاح الطماشة بشكل كلمل عن عينيه ، وجد نفسه داخل زنزانة ، يتدلى من سقفها مصباح كهربائي ، وعلى الأرض رأى بعض الأغطية التي ربما وضعت لأجله بصفته معتقل بالواسطة ، خلع حذائه ووضعه كوسادة تحت رأسه ، ولكن من أين وكيف سيأتيه النوم ؟ كان يتسائل ماذا لو لم يخلوا سبيله كما قالوا ؟! وماهي قصة هؤلاء الذين رآهم قبل لحظات ؟ لم يسترسل بأسئلته بسبب الضجة التي بدأ يسمعها خارج الزنزانة ، وتناهى إلى أسماعه صراخ أحد الحراس على شخصٍ ما :

-انبطح ياحمار .

نهض يدور في الزنزانة ، كانت عملية جلدٍ جماعية تجري في الممر أمام زنزانته مباشرةً ، كان يسمع الضربات بوضوح ، وكانت صرخات الألم تشتد ، ولم يكن باستطاعته أن يسد اذنيه بسبب القيد الحديدي الذي يضم معصميه إلى بعضهما .

أليس السوط أكثر إيلاماً من جرح طلقة على الحدود مع العدو ؟

ألصق اذنه على باب الزنزانة ، ثم بدأ يبحث عن ثقبٍ يساعده على رؤية مايجري ، ومن الكلمات المتبادلة بين الحرس ، أدرك بانهم يقيمون حفلة استقبال لعدد من المعتقلين الجدد ، حفلة استقبال الوجبة الوحيدة فيها هي السياط والشتائم، كانت ضربات السياط تحدث دوياً أثناء ارتطامها باللحم البشري ، ضربة ثم صرخة .

-يا إلهي كيف لا تهتز جدران آخر بيت في الدنيا احتجاجاً ؟

همس لنفسه ، وفي أعماقه بدأ يتفجر الحزن والغضب كينابيع الربيع التي تفجرها الرعود ، وفجأة تراجع عن باب الزنزانة ، وقد بدأ خدر غريب يتسلل إلى عينيه ، خدر لا يشبه النعاس ، خدر مريض لم يشعر بمثله من قبل ، ومع زوغان نظراته ، تمدد فوق الأغطية كميت حقيقي وترك قيده يستريح مع يديه فوق صدره ، استرخى تماماً ، وبدأ شريط حياتي يمر سريعاً في ذاكرته ، ثم أسرع الشريط إلى المستقبل حيث رأى نفسه ميتاً ، وحول نعشه يتعالى صراخ الأهل والأصدقاء ، وكانت أمه أكثر الباكين عليه ، وبهدوء انحدرت من عينيه دمعتان ، من كل عينٍ دمعة تدحرجت فوق صدغه ، وتسللت إلى تعاريج اذنه ، وكأن دموعه أرادت أن تسمعه صوتها .

-هل للدمعة صوت ؟

ابتسم بوهن لهذا التساؤل ، وترك حواسه تتبادل تحيات الوداع ، كانت أطرافه قد بدأت تدخل في غيبوبة ، وقبل أن يفقد الوعي ، خيل إليه أنه يلمح خيطاً رقيقاً من النور ، يتسرب من طاقة صغيرة في أعلى الجداد ، فأغمض عينيه وتمتم :

-أشرقت الشمس .

ثم لم يعد يشعر بشيء.

في وقتٍ ما بين اليقظة والنوم ، فتح أحدهم باب الزنزانة ، ونكزه بقدمه قائلاً :

-انهضي ، هل جاءوا بكِ إلى هنا لتنامي ؟

كان الرجل يحمل معه صندوقاً مليئاً بالسندويش.

-خذي طعامك .

اعتدل في جلسته ونظر إليه ، كانت تقاطيع وجهه إلى جانب لونه الأسمر وكثافة حاجبيه وطريقة مخاطبته له بصيغة المؤنث توحي بأنه من أكراد الشمال ، أعطاه سندويشة واحدة وغادر الزنزانة ، لم يمكن جائعاً كان مريضاً ومن باب الفضول فتح السندويشة ليعرف مابداخلها ، كانت تحتوي على مايعادل ملعقة من الحلاوة فوضعها جانباً واستلقى من جديد ، وشعر بحذائه يخفق تحت رأسه وكأنه يعلن اشتياقه لقدمه ، وبحكم العادة نظر إلى معصمه ليعرف كم الساعة ، ثم تذكر ماحدث وهمس :

-مسكينة ساعتي ، ترى ألن تقف احتجاجاً داخل خزانة حكمت ؟

هكذا فكر بها ، وقدّر بأنها ستشعر بالملل بعد يومين أو ثلاثة وتكف عن الدوران ، اذ ماجدوى دوران ساعة بعيداً عن الإنسان ؟ كان ضوء النهار قد بدأ يتسلل

إلى داخل الزنزانة ، كان الشعاع يشكل حزمة ضوء ، وفي داخل الحزمة الممتدة من الطاقة إلى أرض الزنزانة ، كانت ذرات متناهية في الصغر تدور في الفراغ داخل الشعاع مثل أرواح هائمة لا تعرف الاستقرار .
أعادني ذلك المشهد إلى بيت جدي القديم ، كان هناك طاقة في جدار البيت تسمح لنور الشمس بدخول المنزل ، على هيئة شعاع يمتلئ بذرات تشبه مايراه والدي ، وحول تلك الذرات كنت نتخاصم أنا وأخوتي في محاولات يائسة لامتلاكها ، كنا نقفز في الهواء ونحن نسعى إلى الإمساك بها ، وكنا نزعم بأن تلك الذرات ليست سوى أرواح الموتى من الأهل والأقرباء وقد جاءت إلى زيارتنا ، كان والدي يراقبنا مبتسماً ، وحين يصا التنافس بيني وبين أخوتي إلى مرحلة المشاجرة ، كان والدي يقول معاتباً :
-لماذا الخصام ؟ هناك مايكفي الجميع من أشعة الشمس .
كان والدي قد قضى الكثير من أيام طفولته في القرية ، تحت وهج الشمس وبين أوكار اليعاسيب وأعشاش العصافير ، وبشيء من الحنان نظر إلى دائرة صغيرة يرسمها شعاع الشمس فوق أرض الزنزانة ، كان وهج مليء بالألق يبرق في داخلها ، وطافت في رأسه أشعة الشمس وهي تتراقص فوق نبع قريتهم ، كانت الاشعة تتسرب إلى النبع بين أوراق شجرة صفصاف حانية تتدلى فوق النبع ، مد يديه المكبلتين نحو دائرة الضوء يبحث عن شربة ماء ، ويحاول الإمساك بشيء من ذلك الوهج ، ولكن ياوالدي من يقوى على جلب الينابيع إلى الزنازين ؟ ومن النبع قفزت ذاكرته إلى قريتنا ، هناك كانوا يسبحون عراة ، وعند الظهيرة كان راعي القرية يأتي مع قطيعة للاستراحة في فترة القيلولة ، كانوا يتآمرون مع الراعي ليسمح لهم بشرب الحليب مباشرة من ضروع النعاج حديثة الولادة ، بضع مقّات من الحليب مقابل كمية من التبغ الخام يسرقونه من بيوتهم ويعطوه للراعي،
يا إلهي كيف ينسى المرء؟
أخبرني أنه ذات مرة زحف تحت نعجةٍ شقراء ، فرفسته وصرخ ألماً وبكى ، والأولاد حوله يضحكوو ساخرين منه ، بكنه لم ييأس ، وأعاد الكرّة ثانية والدموع في عينيه ، وكما يبدو أن النعجة قد تفهمت وضعه ، حيث رقّت له واستكانت ، وكما يفعل ابن النعجة أثناء الرضاعة ، بدأ يضغط بفمه صعوداً وهبوطاً على ضرع النعجة بحيث بدأ الحليب يتدفق غزيراً إلى فمه ، وفجأة التفتت النعجة برأسها نحوه وراحت تلحس ظهره العاري بكل حنان كما تفعل عادةً مع وليدها ، كان يرضع كخاروف حقيقي ، وعندما ارتوى تراجع منتصراً على رفاقه ، يومها أخبره الراعي بأن النعجة فقدت ابنها أثناء الولادة ، وعندما أخبرني بكيت كأي طفلة ، وفي تلك الليلة رأيت نفسي في الحلم ألعب فوق مرجٍ أخضر مع خروفٍ صغير ، كنا نقفز في الهواء ونتبارى في الجري ، وعلى طرف المرج تجلس اثنتنان تنظران إلينا وتبتسمان ، أمي والنعجة الشقراء التي

حدثني عنها والدي ، وحين شعرنا بالجوع أنا والخروف ركضنا سريعاً نحو طرف المرج الأخضر ، ركضت أنا إلى ضرع النعجة الشقراء ، وركض الخاروف إلى صدر أمي ، أعوامٌ طويلة مرت حتى فهمت من أجل ماذا تبكي الأمهات ، وحين فهمت ذلك بعد وفاة والدي كان الخروف الذي بداخلي قد كبر وصار كبشاً تسعى وراءه الذئاب والضباع .
-نطحة من رأس كبش بمفردها لا تقتل ذئباً.
كان شعاع الشمس الضئيل قد اختفى تماماً من الزنزانة ووجد نفسه يتساءل:
-هل أنا حقاً بمفردي؟
تخيل عشرات القطعان من الكباش ، تمشط الجبال والوديان بحثاً عن الذئاب .
-هل جاء زمن الضحايا بعد طول غياب؟
أشعره حلم يقظته بقليلٍ من الفرح ، وفي أذنه بدأ يسمع عواء الذئاب وهي تطلب الرحمة ، وتخيل أن رفاقه من الكباش جاءوا إليه لانقاذه ، وبغتة فتح أحدهم باب الزنزانة بعصبية ، وكان يحمل بيده سوطاً ، كان الرجل أبرش اللون كالضبع ، وله أنف ضخم ، شعر بأن الكباش قد بدأت تهرب من رأسه ، ومن دون أي كلام عاجله الرجل بضربة من السوط ، وأتبع الضربة برفسة قوية ألقته أرضاً ، وقبل أن ينهال عليه ، امسك حكمت بيده صارخاً:
-ليس هذا الرجل المطلوب !
حملق الرجل في وجهه وكأنه يأسف لأنه ليس الرجل المطلوب .
-أنت فتحت الزنزانة الخطأ يافادي .
قال له حكمت ، وغادرا الزنزانة معاً ، وقبل أن يقفل حكمت باب الزنزانة رمقه بنظرة تعاطف فجلس على الأرض ، وسمع صوت الزنزانة المجاورة يفتح ، ثم جاءه صوت المدعو فادي مليئاً بالفرح الشيطاني :
-اذن .. أنت هو الذي يضرب عن الطعام ؟!
قال فادي وقهقه ساخراً وأضاف :
-سترى ماذا ستأكل الآن .. هيا جروه إلى الممر .
زحف نحو باب الزنزانة ، وتنرر إرضاً ، ومن بين زاوية الباب السفلية ونقطة القائها مع العارضة ، عثر على شقٍ صغير ، وضع عينه عليه لكنه لم يشاهد سوى الأقدام ، وبعد ثوانٍ ألقوا بالرجل المضرب عن الطعام أرضاً ، كان الرجل يئن بصوت خافت ورأسه أمام زنزانة والدي مباشرةً
سأله أحدهم :
-هل ستأكل أم لا؟
وسمع فادي يقول بإصرار :
-سأجلده إذا أكل أم لم يأكل .
ثم جاءه صوت حكمت مخاطباً الرجل :
-الإضراب عن الطعام لن ينفعك في شيء ، كلْ وأعدك بالعودة إلى الزنزانة .

وبلهجة حاسمة قال فادي :
-حكمت لا تتدخل لو سمحت .
وهكذا بأت السياط تعلو وتهبط فوق جسد الرجل الذي كان يصرخ بجنون ، ومن خلال الشق رأى الطماشة تنزاح عن عيني الرجل ، كلنت بحيته طويلة ، مخططة بالبياض وكانت الكدمات تعلو وجهه كلن يصرخ ويستدير بوجهه نحو باب زنزانته وكأنه يطلب النجدة ، وفي لحظةٍ ما تخيل أن عينه قد التقت بعين الرجل ، فهرب برأسه خجلاً ، لكنه عاد للمراقبة من جديد وقد لاحظ أن صرخات الرجل قد توقفت ، وسمع أحدهم يقول :
-اعتقد بأنه قد مات .
امتدت يد إلى عنق الرجل ، وسمع صاحب اليد يقول :
-هذا اللعين بسبع أرواح .
ثم رأى قدماً بحذاء أسود أنيق ، تقف فوق عنق الرجل الذي مال برأسه نحوه ، ظل صاحب الحذاء يضغط على عنق الرقب مما اضطره إلى أن يفتح فمه طلباً للهواء ، كان يشهق بحشرجة مخيفة ، وحين فتح فمه على الآخر ، رأى مقدمة الحذاء الأسود تدخل إلى فم الرجل ، وسمع صوت صاحب الحذاء يقول بشماتة:
-كلْ حذائي ياحقير .. أنا سأعلمك كيف تضرب عن الطعام .
جحظت عينا الرجل كضفدع صغير ، وسمع حكمت يصرخ :
-حاذر..اعتقد أنه قد مات .
اخرج الرجل مقدمة حذائه من فم المعتقل وهو يقول :
-اللعين ..لقد لوث حذائي بالدم والبصاق.
وشاهد قدم الرجل صاحب الحذاظ ، تمسح مقدمة الجذاء بلحية الرجل المضروب ، وسمع صوت فادي يقول :
-لا تخف ياحكمت ، الرجل لم يمت.
وجاءه صوت آمر :
-أعيده إلى زنزاوته ، واذا رفض الطعام فيما بعد أخبروني .
اختفت جثة الرجل الميت – الحي- ونهض والدي عن الأرض ، ولا يدري ماذا يفعل ، هل يصرخ ؟ أم يضحك؟ أم يبكي؟ كان يدور في زنزانته وروحه توسك أن تغادره ، كانت الضجة قد هدأت تماماً أمام الزنزانة ، بعد دقائق فتح حكمت الباب وكان وجهه يعبق بالاحمرار .
-لا أدري ماذا أقول ؟
قال له والدي بسرعة، فرد عليه بحذر شديد :
-وماذا تتوقع منهم غير ذلك ؟
قال حكمت ، ثم حدثه عن سوء التفاهم الذي أدو إلى ضربه ورفسه ، وأشار إلى أن عناصر الفرع كغيرهم من البشر ، يختلفون عن بعضهم في الثقافة والوعي والتربية وحتى بالانتماء ، وطلب منه أن يستريح :

-يمكن أن يطلبونك في المساء .
أجابه والدي :
-الوعد بأنهم سيطلقون سراحي خلال يومين .
فأجاب حكمت بهدوء :
-بكل الأحوال عليك أن تتوقع الأسوأ حتى لا تتفاجأ .
وهنا قرر أن يساله عن عمله قبل الالتحاق بالخدمة الإلزامية ، وبصراحة لم يدهش من جوابه عندما قال :
-أنا معلم مدرسة وأدرس الأدب العربي في جامعة دمشق .
وسأله ثانية :
-ما الذي جاء بك إلى الخدمة في الفرع؟
أجابه حكمت بخجل :
-أهلي يعرفون رئيس الفرع العقيد نزار ، وهو الذي جاء بي لأخدم هنا ولأكون قريباً من الجامعة .
وأخبره بأن عدة اتصالات وتوصيات قد جرت من أجله ، وأكد له بأن تقريراً رفع صباح اليوم إلى الجهات العليا ، يتصمن اخلاء سبيله ، وقبل أن يغادر ويقفل عليه الباب قال :
-اذا احتجت إلى شيء ، دق الباب .
بعد ذهاب حكمت ، حاول أن يجهد نفسه بالحركة ، مشى أربع خطوات باتجاه اليمين ، وأقل منها باتجاه اليسار ، وانتهت المسافة ، فجلس فوق الأغطية متسائلاً :
-أهذا كل مابقي لي من مساحة الكرة الأرضية ؟ سبع خطوات فقط؟ التفت جانباً، ورأى السندويشة ورفعها بيديه الاثنتين إلى فمه ، وحين دخلت بين شفتيه ، تحركت أصابعه فوقها كمن يعزف على المزمار ، وبعد اللقمة الأولى همس متسائلاً :
-هل نحن جميعاً من الأبرياء؟
وضع بقايا السندويشة قرب الباب ، وفي ذهنه تتوارد الأسئلة
-أليس من العدالة أن يُحال جميع الموقوفين إلى المحاكم ؟
من يقف ضد أي عقاب يناله شخصٌ جزاء ما اقترفت يداه ؟! حتى أنا لن أحزن على نفسي حين أُدان بالحجة والبراهين ؟ ألم يحدد القانون نوع العقاب لكل جرم؟
تخيلت للحظة أن أحاكم أبي في القضاء .. ألهذا السبب قد اخترت فرع الحقوق؟ لأطالب بمحاكمة الأشخاص المنسية كحكايته ؟
تذكرت حواراً جرى بيني وبين أحد معارفي حول هذه المواضيع ، وهو من الانتهازيين الظرفاء ، يومها أشار إلى أنني أحمل السلّم بالعرض ، ونصحني بالابتعاذ عن المشاكل ، وردد أمامي هذا المثل : ألف أم تبكي ولا أمي تبكي .

ثم أين الخطأ في أن تبكي أمي مع الباكيات وتفرح معهن ؟! كانت طبيعة أمي أميل للحزن ، بسبب المسؤولية التي تقع على كاهلها في تربية بناتها ، ورغم صعوبة وضعنا لم تفقد الأمل بالفرح ، ونجحنا نحن الثلاثة ، أختي الكبيرة تخرج من كلية الآداب قسم أدب الإنكليزي ، وهي الآن متزوجة وتكمل دراسة الترجمة في روسيا ، وأختي الوسطى تخرجت مؤخراً من فرع التجارة والاقتصاد قسم إدارة الأعمال ، أنا في السنة الأخيرة من فرع الحقوق .

كانت تردد أمي دائماً بأن الحزينة لابد وأن تفرح ذات يوم ولو في عرس جارتها.

اشتهي الآن لو أعود طفلة تتطارد الفراشات والعصافير ، كنت امتطي صهوة قصبةٍ طويلة واسابق بها نسائم الصباح ،وتموجات الريح فوق حقول الحنطة ، وفي صدري تعبق رائحة الزيزفون والزعتر البري ، وتحت قدميّ العاريتين تنحني الأعشاب الطرية ، وتلوي أزاهير البراري أعناقها ، وبين أصابع قدميّ كانت تعلق بعض قطرات الندى المخضبة بالتراب ، كنت اركض واركض واسمع ظلّي يلهث ورائي ، وفي بعض الأحيان كنت اترك ظلي يرتاح تحت شجرة سنديان وامضي خفيفةً كالطيف ، اقفز بين الكروم ، وأقطف الخصلات الشاردة من جدائل العناقيد المنسية في رؤوس أشجار الدلب والصفصاف ، كنت أبحث بين المروج ، وعند حواف السواقي عن ضفدعة خضراء لأربطها بخيط وألعب معها ، وكم من مرّة عدت إلى البيت مورّمةً من لسع اليعاسيب ؟! كانت اليعاسيب تهاجم خلايا النحل وثمار التين وحبّات العنب ، وكنا بدورنا نحن الأطفال نهاجم أوكارها بحزم من أوراق الدلب ، وفي أيام البيادر كان نمل أصفر كبير الحجم يتسلل ليسرق حبّات القمح ، ويعتدي على النمل البلدي الصغير الأسود اللون ، كانت جموع النمل البلدي تبدو مسالمة ، وتعمل بصمت على أخذ حبات القمح لتخزنها لأيام الجوع في مخابئها ، كنت أراقب عملها بمودة ، وحدث أكثر من مرة أنني لحقت بسربٍ من النمل إلى وكره ، ووضعت فيه كمشة من القمح ، وقد دهشت حين رأيت النمل الأصفر يخطف الحنطة من أفواه النمل البلدي ، ونقلت دهشتي إلى والدي الذي قال لي بأن لكل شيءأعداء من جنسه ، وأن علينا محاربة النمل الأصفر الغريب الذي لا يعرف الشبع ، ولكن ماذا يفعل المرء مع النمل البشري الأصفر ؟ من يسمح لليعاسيب بأن تتوج نفسها ملوكاً على خلايا عاملات النحل ؟ لذلك كنت أساهم بحرق أوكار النمال المعتدية ، وبشيء من الجنون ، خطر لي بأن اليعاسيب والنمال الصفر هي التي جاءت بوالدي للزنزانة ، تخيلت أن النمل الأصفر هو من سحبه من بيادر أهله ، بحيث لم يبق له من زرقة السماء واتساع البراري سوى ما تستعيده ذاكرته ، لاشيء أمامه غير تلك الجدران التي تنتصب حوله كقير رسمي ينتظر سقوطه ، بدأ يشعر بأسراب لا تحصى من التلال والجبال والغيوم والينابيع ينتصبون في سماء ابزنزانة ، مشكّلين لوحة مليئة بأقواس قزح ، وبدأ يسمع زقزقة

العصافير، وطنين عاملات النحل ، وفي وسط كل ذلك الجمال رأى وجه أمه ، وسمع صوتها وهي تغني له وتهدهد بيدها قبره الحجري ، فتمدد فوق الأغطية ، وأطبق أجفانه ، كان في هذه اللحظات يشعر فعلا بأن الزنزانة تتأرجح بهدوء ، مثل سرير خشبي تهزّه يد أم تحاول إدخال النوم إلى عيني طفلها الرضيع ، وقبل أن يغفو ، لم يدري هل كانت ثمة ابتسامة تعلو شفتيه ؟

توقفت عن الكتابة كانت الساعة تجاوزت الرابعة صباحاً ، توجهت إلى السرير وأنا أحاول التفكير في شيء آخر ، وإلا قد أصاب بالجنون ، تمددت على سريري متقلّبة أصارع الأرق ، حتى بدأ سريري يهتز ، حاولت النهوض لمأقدر على الحركة ، للوهلة الأولى ظننت أنني جننت ، لكن لا لقد كان زلزال !

الجدران من حولي تهتز ، صوت باطن الأرض مرعب ! في الغرفة المجاورة سمعت أختي ليلى تصرخ لي، لكن من شدة خوفي لم أقدر على الإجابة ، فقدت القدرة على النطق ، نهضت محاولة تثبيت قدمي ، ولكن الأرض ترفضني فتدفعني مرة أخرى إلى السرير ، لم أكن انظر حولي ، ومع صوت باطن الأرض كنت اسمع صوت تكسير، نهضت بشجاعة ، وجدت أختي ليلى تكاد تسقط أرضاً ، كانت ركبها تقصف خوفاً ، تمالكت قوايي عندما رأيتها ، احتضنتها محاولةً تثبيتها على الأرض ، وسمعت صوت أمي من الغرفة المقابلة تصرخ لنا ، تركت اختي ليلى ،وكان الرعب قد سيطر على ملامحها ، ولونها أصفر كالشمع ، كان السلم الحديدي يقع على باب الغرفة ، ثبته بعزم وصرخت بليلى لتخرج ،.خرجنا وجدت أمي تنتظر لنا بأسى ، كانت أرض الصالون عبارة عن حطام وأنا ادوس على رؤوس أصابعي خرفاً من الزجاج المتناثر ، كل هذا حدث في ثواني ، ولم يكن قد انتهى بعد ، في حين مازالت الأرض تهتز بقوة ، وصوت الأرض المرعب ، احتضنتنا أمي وجلسنا على الأريكة بانتظار أن يسقط فوق رأسنا المبنى ، كنا في الطابق الثالث ، والجدران تميل يميناً وشمالاً ، وبدلاً من أن أغمض عيني ، بحلقت بالسقف لأشهد على لحظة موتي السيئة ، وللصراحة كان خوفي الأكبر أن لا أموت ، وينتشلوني من تحت الأنقاض بلا عائلة وبلا منزل ، الموت أرحم .

أخيراً بعد أن توقفت الأرض عن الاهتزاز ، قررنا أن ننزل من المنزل ، كانت السماء تمطر بشدة ، والساعة تشير إلى أنها الرابعة وثلث صباحاً ، خرجنا بما علينا من ملابس ، دون أن نفكر بشيء ، كل شيء ربما نعوضه ، إلا الروح فخرجنا هاربين بأرواحنا من منزلنا ، كنا في السابق عند بداية الحرب ، نهرب خوفاً من الخارج إلى المنزل ، أما الآن حتى الجدران بإمكانها أن تغتالنا !

هربنا إلى العدم ، كان الشارع مزدحماً بالبشر ، نظرت حولي اتأكد من عدد الأبنية ، فرأينا سيارات مسرعة باتجاه يقود إلى الشارع المجاور ، وتحت المطر ذهبنا أنا وليلى لنرى ماذا يحدث ، في بداية الشارع كانت أعمدة الكهرباء ممددة أرضاً رهبةً ، توقفت قدماي عن السير ، وتحت ضوء الفجر ، وكلما

كانت تبرق السماء ، كنت أشعر بأن هنالك شيء مختلف ، حتى باغتني صوت ليلى كالطلقة :

-يا إلهي البناية سقطت !

نظرت برعب منتظرة أن تبرق السماء مرة أخرى لأتأكد مما قالته ، وعندما رأيتها قد باتت حطام ، والسطح يغطيها كعلبة الكبريت ، فقدت أعصابي.، بدأت قدماي ترتجفان خوفاً ، وشفتاي ترتعشان ، نظرت إلى ليلى وقلت :

-لكن ..لكن هنالك بشر في هذا البناء .. أليس كذلك .. بشر ، إن هنالك أطفال قد نامت على حكاية طفولية ،ألا تسمعين صراخهم !

وبدأت أركض أنا وليلى إلى حيث لا ندري، كنت أبكي بحرقة ومازلت لم أصدق ما تراه عيني ، كانت الشوارع تزدحم بالسيارات ، عدنا إلى أمي كانت تقف مع جيراننا في الحارة ، وبقينا نقف في الشوارع خائفين من منازلنا حتى أشرقت الشمس ، كان المطر لايزال يهطل بغزارة ، لم يكن لدينا مكانٌ نذهب إليه ، كنت أسمع الجيران يتحدثون كل منهم ذاهبٌ إلى منزله في القرية ، أو عند أحد الأقرباء ، وكدت أضحك ، فلا منزل لنا ولا قرية ولا حتى أقرباء !

ليس لنا في تلك القرية إلا قبر والدي !

عنذ صعودنا درج المنزل ، كنت أشعر كأنني أصعد إلى قبري ! ولم أعد أرى شيئاً أمامي إلا مشهد البناء الذي سقط أمام عيني ! لماذا أثق بجدران منزلي بعد الآن ؟ وصلنا المنزل ولم تكن أحدنا تكلم الأخرى ، الصمت يحتل المكان ، ورائحة الموت كانت تنتشر كلما أشرقت الشمس اكثر، كنا نسمع أخباراً عن عدد الأبنية التي سقطت في جبلة ، والأبنية المهددة بالسقوط وقوع الهزات الارتدادية ، اشعلت سيجارة وأنا أراقب الأشياء تهتز اهتزازاً خفيف كل برهة . الفكرة الأكثر دفئاً التي خطرت للإنسان هي فكرة البيت والعائلة ..الآن كل البيت يرتجف ، والعائلة لم أعرفها بأكملها إلا من نعوة والدي ، ولربما قد نسيت بعضهم الآن ، نظرت لنا أمي نظرة خوف ممزوج بنوع من الاستسلام واقترحت أن ننزل الشارع مرةً أخرى ، أخذنا أغراضنا المهمة ، الهوية والأوراق الشخصية ، بعض الملابس ، ومانملكه من مال لا يكفينا أكثر من أسبوع ، وقبل خروجنا المنزل ، وقفت لألقي نظرة وداع على منزلنا لأول مرة ، تخيل أن تخرج من منزلك إلى حيث لا تدري وربما لا عودة ولا منزل !

لأول مرة شعرت بالحب تجاه البيت ، لأول مرة أراه جميلاً ، وأشعر بدفئ يملأ زواياه ، نظرت إلى صورة والدي المعلقة على الحائط كان ينظر ثم بدأت تهتز ، كنت أراقب ابتسامته تروح يميناً وشمالاً بشكلٍ بطيء وهادئ ومخيف!

صرخت بي أمي لنسرع ، أغلقت الباب وكنا نتدافع مع الجيران على درج البناء ، الكل يتسابق للنجاة ، للأمانة كانت المرة الأولى التي نتفق بها على القيام بعمل سوياً ، إنها عزة الروح ! فجأة تلك التفاصيل وذلك الروتين الممل ، يصبح

جميلاً وتدعو الله أن لا يحرمك منه ! إنها الغريزة البشرية ، لا تشعر بالشيء حتى تفقده !
وقفنا وحيدين في الشارع ، حتى رن هاتفي ، صديق مقرب لوالدي يدعى صقر الأحمد ، أرسل ابنه ليأخذنا إلى قريتهم ، قال لي :
-بالطبع لن أرضى زوجة وديع وبناته أن يلجؤا لأحد ، أنتم أمانة برقبتي .
ذهبنا إلى قيرون ، استقبلنا في منزله ، كان عمره يقارب السادسة والسبعون يسكن هو وزوجته هالة كانت تصغره بما يقارب العشر سنوات .
استقبلونا في منزلهم مايقارب الخمسة عشر يوماً ، كانت المرة الأولى التي أشعر بها عند أحد بهذا النوع من الأمان والأريحية ، وكأننا خرجنا من منزلنا ، إلى منزلنا الثاني .
بعد ذلك عدنا إلى جبلة، وتعايشنا مع رائحة الموت والرعب في الشارع ، حتى هذه اللحظة كلما هبّت عاصفة ، لا ينام أحد حتى طلوع الفجر ، بإمكانك أن تهرب من العدو ، لكن كيف تهرب من قدرك ، سمعت عن عائلة توفوا بحادث سيارة ، بينما هم هاربون من الزلزال ، إن الله على كل شيء قدير .
هذه الفاجعة أخذت معها الكثير من الأشخاص الطيبة القلب ، وأخذت معها شعور الأمان ، أصبحنا مهزوزين داخلياً ، أي اهتزاز يحرم شيئاً ما في قلبك وتعود إلى ذلك اليوم المأساوي .
ومع ذلك ، تلمس رحمة الله وعظمته في مواقف تقشعر لها الأبدان ، أناس خرجت بعد خامس يوم من تحت الأنقاض ، لم يشعروا بالخوف ولا الجوع ولا العطش، بقيت تمطر طيلة الأسبوع ، فمنهم من عاش على قطرات المطر التي تتسرب إلى فمه بين الأنقاض، أو تلك الطفلة التي وُلدت من قوة الضغط على بطن والدتها التي فارقت الحياة، وكانت قد تغدت عن طريق الحبل السري ، وخرجت حية !
الكثير من تلك المواقف ، أكبر من أن يستوعبها العقل البشري ، سيشعر بالرهبة أمام عظمة الله والطبيعة .
بعد فترة ليست بقصيرة ، استجمعت قواي مرة أخرى لأكتب من جديد، في كل تلك الفترة كان عقلي مشوش ، ولا شيء يشغل بالي إلا الموت ، انظر إلى جدران المنزل واسأل نفسي هل ستقع الليلة على رؤوسنا ونحن نائمون ؟
فتحت الدفتر ، كنت قد توقفت عند ابتسامة والدي التي ظن أنها تعلو شفتيه ، لكنه استيقظ من النوم ، لم يعثر على أثرٍ لها ، كان المصباح الكهربائي في أعلى السقف يحملق به باصرار ، وكأنه يرصد تحركاته ، كانت حنجرته جافة ، ولديه حاجة ملحّة لدخول التواليت ، فقرع الباب الحديدي بيديه الاثنتين ، وجاءه صوت أحد الحراس :
-من منكم يدق الباب ؟

أجابن بالقرع ثانيةً ، فجاء وفتح باب الزنزانة ، كان يبدو شاباً ناعماً ويحمل بيده مذياعاً صغيراً ، وسأله بهدوء :
-مادا تريد ؟
أجابه بخجل :
-اريد الذهاب إلى الحمام .
-ضع الطماشة فوق عينيك وتعال .
غادر الزنزانة . تاركاً مسافة صغيرة بين عينيه والطماشة ، ليتمكن من رؤية ألأين يضع قدمه ، وسط المعتقلين كان لابد من اختراق الصالون الذي يغصّ بهم للوصول إلى الحمام ، ثم وقف وسأل الحارس :
-كيف ادخل والقيد يطوّق معصميّ الاثنين ؟
رد الحارس بمرح :
-يمنه فكّ القيد لأي كان حتى لو كان معتقلاً ولديه واسطة ..
دخل التواليت مكرهاً ، وفي تلك اللحظات كان راديو الحاري يشدو بأغنية للسيدة فيروز ، وبلمح البصر حرّك الصوت الفيروزي في داخله رغبة شديدة إلى الخروج نحو الحياة والدفء والحرية ، وشعر بقلبه يذوب من عينيه ، كانت بضع قطرات حارة قد بدأت تجول بين أجفانه ، لكنه تمكن من ضبطها قبل أن تنهمر ، وإثر خروجه وقف أمام المغسلة متسائلاً :
-عفواً ألا يوجد صابون ؟!
أجابه الحارس ساخراً:
-وهل تحسب نفسك في الشيرتون ؟!
كانت قعقعة القيد في يديه تحت صنبور الماء، توحي له بأنه في سفرةٍ لا خيار له فيها للعودة إلى الحياة ، بدت له الرحلة في أولها ، ولا يعلم كيف ومتى تنتهي ، ولأول مرة لمح كلمات صغيرة مكتوبة بالانكليزية فوق أصفاده ، رفع القيد نحو وجهه وقرأ :
made in spain -
لفتت حرةتخ انتباه الحارس ، فسأله عما يفعل
-قرأت هنا أن هذه القيود مصنوعة في اسبانيا
فقال ساخراً :
-نحن لا نملك سوى الحبال ، لذلك نستورد لكم من اسبانيا وغيرها .
خطر لي أن فرانكو هو الدي أمر باعتقال والدي ، وقادتني أفكاري إلى تلك الليلة المقمرة خارج مدريد ، حين كانت فصيلة الإعدام ، تقود شاعراً بين ، وتحت سمع وبصر مئات النجوم والجذوع والأغصان ، وقعت الجريمة ، وكانت أشعة القمر تسترق النظر من بين أوراق الزيتون إلى مايجري ، ولم تنس أن تطبع قبلة وداع فوق وجه لوركا ، وتسجل في ذاكرة الضياء ، مشهد قتل احد أبرز شعراء العصر ، في تلك الليلة ، رحل القمر حاملاً معه قطراتٍ

من دم لوركا ، ومنذ ذلك التاريخ لا يطل القمر على الدنيا ، إلا وهو يحمل في أشعته شيئاً من شحوب وجه لوركا .
القمر يهّل ويغيب ، ولكن هل غاب لوركا ؟
قصائده ماتزال تنمو كحبات القمح ، وجراح صدره ماتزال تنزف ، ونبضه الحار يخفق في قلوب عشاق الكرامة والحرية .
من الذي مات في ضواحي مدريد ؟ فرانكو أم لوركا ؟
طلقات الغدر هي التي ماتت ، ومعها مات فرانكو ، الرصاص أعجز من أن يقتل روحه المتوهجة ، وهنا تذكرت مقالة كتبها والدي قديماً حول حادثة جرت من فرانكو وهو على فراش الموت
كان فرانكو يرقد في أحد مشافي مدريد ،. وفي لحظاته الأخيرة ، سمع ضجيجاً لآلاف المتظاهرين خرجوا ضده ، فسأل طبيبه بوهن :
-ماذي يجري خارج المشفى؟
خجل الطبيب أن يخبرن بأن هناك مظاهرة معادية لن ، فقال له بأدب وبطريقة ترضي غروره :
-هذا الشعب الاسباني جاء ليودعك ياسيدي .
وهنا فتح فرانكو عينيه بدهشة وقال متسائلاً :
-ولكن إلى أين يسافر الشعب ؟
خيل لي أن والدي يبتسم وحيداً في زنزانته ، وهو يراقب القيد المصنوع في اسبانيا ، وبشيء من الوهم حاول قطع السلسلة الصغيرة التي تربط بين اسوارتب -الكلبجة- ولم يدهس حين فشل ، فهذه القيود تحتاج إلى طاقة أكبر من طاقة الفرد على كسرها ،. كان لايزال يحملق في القيد عندما سمع نقرات على باب الزنزانة ، وجاءه صوت أحدهم يسأله :
-من أنت ؟ ومتى جاءوا بك إلى هنا ؟
تردد في الإجابة ، ولكن الصوت قال له مشجعاً :
-لا تخف الحارس بعيد ، وأنا أحدثك من باب الصالون القريب منك .
تذكر أن الصالون يبعد عن باب زنزانته أقل من متر ، وهو يبقى مفتوحاً
-اسمي أحمد ..وأنا موقوف من حوالي الشهرين .
قال الصوت ثم أضاف :
-أنا طالب جامعي ..أرجوك كلمني ، إنها فرصة للحديث منك .
-أنا صحفي واسمي وديع .
ضحك أحمد ضحكة خفيفة وقال :
-أهلاً بك معنا .
-من معك من الشباب ؟
-كوكتيل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.
-هل عبد المسيح معكم ؟

-لا ..سمعت أنه في الندوة .
قال بدهشة :
-هل يسمحون له بدخول الندوة وشرب القهوة والشاي ؟
ضحك أحمد ضحكة ناعمة وقال:
-في الطرف الآخر ، يوجد ندوة لعناصر الفرع ، لكنهم ألغوها وحولوها إلى صالة اعتقال لضيق المكان .
-من أين أنت وماذا تدرس؟
-أنا نازح من الجولان ، وادرس أدب الانكليزب ، والمهم انني سمعت أنه سيتم نقلنا من هنا إلى أحد السجون في وقتٍ قريب .
حاول كبت -عطسة – راودته ، لكنه فشل وانفجرت العطسة مثل قنبلة صغيرة ، وسمع أحمد يحذره
-انتبه لقد عاد الحارس .
جاء تحذير أحمد متأخراً
-من منكم كان يتحدث من الزنزانة المجاورة ؟
لم يرد عليه أحد ، فصرخ غاضباً :
-قسماً سأجلدكم جميعاً يا أبناء الكلب .
وبسرعة تدخل وديع بصوت قوي :
-أنا ..أنا كنت أسألهم أن يرسلوا وراءك .
فقال الحارس :
-ألا تعرف أن تدق الباب ؟ ماذا تريد ؟
-كنت أريد أن أعرف منك اذا كانوا سيحققون معي الليلة ؟
فردّ عليه بسخرية :
-وهل أنا رئيس الفرع ياحضرة المدلل أفندي ؟؟
ثم أردف محذراً :
-الكلام ممنوع منعاً باتاً ..مفهوم ؟
-مفهوم
تنفس بارتياح ، وقد شعر بأنه انقذ أحمد من ورطة ، وتمنى لو يتم نقله إلى الصالون أو الندوة ، كانت الزنزانة تبعث في نفسه عوامل الوحشية والخوف والاستسلام إلى شتى أنواع الذكريات والأفكار ، كان بحاجة لمن يتبادل معه الهمس ، بل وحتى الصمت ، كان يكفيه أن يرى ويشعر بوجود بشرٍ قربه ، ولو كان الكلام ممنوعاً .
-يا إلهي من اخترع الزنازين ؟؟
نهض عن الأرض محاولاً السير ، وسخر من نفسه من الخطوة الأولى، أين يمشي؟ وإلى أين؟ كان في مامضى يشعر بأن العالم الخارجي أضيق من أن يتسع له ، فكيف هي حالته وهو في هذا القبر ؟

وقف يتأمل جدران الزنزانة ، وتمكّن من قراءة بعض الأسماء والتواريخ ربما تمّ حفرها بالأظافر ، وكأن من كتبها أراد أن يترك أثراً خلفه، كالحلزون !
طبعاً لم يتعرف على أيّ من الأسماء ، لكنها جميعاً توحي بأنها من فصيلة الحلزون.
أنا أدري أن للزنزانة شرورها ، لكنها تسمح للمرء بإلقاء الأسئلة والبحث عن الأجوبة دونما خوف ،
علمت أنه كان يجلس وحيداً ، وليس هناك مايخيفه أو يدفع به للخجل منه ، بإمكانه أن يقف عارياً أمام نفسه ، ريرى بوضوح ماضيه وحاضره ، وما يتمكن أن يكون عليه مستقبله .
أسئلة كثيرة تومض كالبرق ثم تختفي ، وقد يحدث أن تتزاحم الأسئلة في ذهنه ، وتشعره بالعجر عن التركيز حول قضية واحدة.
-هل سيطلقون سراحي فعلاً؟
تساءل وهو يعتدل في جلسته ، واسند رأسه إلى الجدار ، التفت نحو حذائه المنزوع من الأشرطة ، كانت فردتان بالقرب من بعضهما ، ولا يدري كيف خطر له بأنهما تتحدثان معاً بصوت خافت ، وكل فردة حذاء تسأل الأخرى عن شوقها للدروب، كان منظر الحذاء الخالي من قدميه يثير الحزن والشفقة ، لذلك قرّبه نحوه بحنان ، وسأله بصوتٍ مسموع :
-هل تحنّ إلى الدروب مثلي؟
أجفله صوته ، واخجله صمت الحذاظ ، فعاتب نفسه متسائلاً:
-هل حدث لعقلي شيء؟
ربّت على وجه الحذاء لرفق ، زحف نحو باب الزنزانة ووضع عينه على الشق الصغير محاولاً استراق السمع ، فلم يرى أو يسمع شيئاً ، فعلم بأن أحد الحراس يجلس على باب الصالون ، كان بوده لو يتهامس مع الطالب الجلمعي المدعو أحمد ، لذلك عاد إلى مكانه يحاول حفر إسمه على الجدار ، وفشل لأن أظافره لم تطول بعد . وفي لحظة ما ، فتح حكمت باب الزنزانة وبعد التحية قال له :
-أسرع ..أنهم في انتظارك .
ارتدى حذائه ووضع الطماشة فوق عيميه ، ساعده حكمت في السير بين المعتقلين الممدين على الأرض ، ومن تحت الطماشة بحث بعينيه قرب باب الصالون عن أحمد ، كانت وجوه الجميع متشابهة ، والكل يرتدي الطماشات وتبدو لحاهم واضحة ، ومع بداية صعود الدرج لم يعد يفكر بشيء آخر سوى بالأجابة عن هذا السؤال :
-كيف ستتم هذه المقابلة وهل ستنتهي على خير ؟!
وفي آخر درجة من الطابق الثاني ، استلمه أحدهم من حكمت ، ولم يتابع الصعود به ، بل قاده إلى غرفةٍ ما وأدخله إليها ، وأغلق وراءه الباب ، وخلال

ثوانٍ شعر بخطوات تقترب منه وبيدٍ تنزع الطماشة عن عينيه ، نظر مباشرةً إلى الرجل الذي بادره :
-تفضل بالجلوس إلى هذه الطاولة الصغيرة .
جلس وهو يتأمله ، كان وجهه يبدو طيباً كوجوه الفلاحين ، وله شوارب سوداء بدت وكأنها مرسومة بقلمٍ من الفكم ، وبمودة سأله :
-أتشرب القهوة أم الشاي ؟!
وعلى الفور اعتقد بأنهم يستخدمون طيبة هذا الرجل ، لانتزاع أسراره ، ومع ذلك همس له:
-قهوة لو سمحت .
وبعد أن وضع الحاجب القهوة أمامه ، سأله الرجل ثانيةً :
-هل تدخن؟
كان الرجل يستند بطرف مؤخرتخ إلى طارلة مكتبه ، ومن تحت سترته لمح فوهة مسدس تراقبه هي الأخرى ، ومن خلفه كانت نسائم لطيفة تتسلل إلى الداخل من النافذة المفتوحة .
-تفضل
ناوله سيجارة مالبورو ، اشعلها له ووضع علبة السجائر أمامخ ، وقال معتذراً .
-آسف .. نسيت أن انزع قيدك !
وضع الرجل القيد على الطاولة وقال بهدوء :
-أنا المساعد أول حسن ، وكنت أخدم في الجيش مع ابن عمك ثم انتقلت إلى هنا.
-وإلى متى سأبقى هنا ؟
تجرأ وسأله ، تأمله المساعد بنظرة يشوبها الحزن وقتا :
-لو كان الأمر بيدنا لأطلقنا سراحك فوراً ... تقرير اللجنة جاء لصالحك ، ألم يخبرك حكمت بذلك ؟
-بلى .
-أنا طلبت منه أن يخبرك ! المهم أننا جميعاً ننتظر قرار الجهات العليا .
كان على وشك أن يسأله :
-ما المقصود بالجهات العليا؟
لكنه تابع كلامه :
-نريد منك تقريراً شاملاً عن تفاصيل حياتك ، وسنوات دراستك ، ومن أين أنت ، وماذا تعمل ؟ اكتب كل شيء منذ الولادة وحتى الآن .
ثم قدم له مجموعة من الأوراق البيضاء وقلماً أزرق وأضاف :
-خذ راحتك في الكتابة ، ولا تهتم لوجودي .
ثم استدار وجلس وراء مكتبه ، وأمسك بجريدة يومية وراح يقرأ بها ، أما وديع فأمسك بالقلم وهو يتساءل :
-منذ متى كان تاريخ ميلادي مهماً ؟

هل يبدأ بالكتابة عن قريته التي كانت عبارة عن مجموعة من بيوت الطين يخترق سقفها البرد ؟ ولسنوات طويلة لم تعرف طرقها طعم الاسفلت ولا تعرضت جدرانها للسعات التيار الكهربائي ، ألم تكن قريته مقطوعة من شجرة؟ في هذه الفرية وُلِد وقضى سنوات طفولته الأولى ، أيحق لأحد أن يسأل أبناء القرية عن سرّ بقائهم على قيد الحياة بعد كل هذه الأعوام ؟!

ولست أدري لماذا فكرت باختصار سيرته الذاتية بثلاثة كلامات فقط :

وُلِد واعتقلوه وتوفي .

وبهدوء اشعل سيجارة وأخذ منها نفساً قوياً لدرجة أنه شعر بالدخان يتصاعد من رأسه ، ومع بداية الجملة الأولى تذكر أوراقه وأقلامه ، واسترق نظرة إلى المساعد حسن ، كان يقرأ في الجريدة كأي مواطن عادي لا يحمل مسدساً ، وهمس في سره :

لماذا يكون هذا الرجل وأمثاله في هكذا مواقع ؟

أخذ -شحطة- وباشر الكتابة ، وكان قد دوّن ماكتبه في تلك اللحظات ورأيتها بخطٍ صغير على ورقٍ أصفر متآكل من قِدمه :

عدت إلى تلك الليلة التي كان العالم يدفع بها ثمن جنون النازية ، في تلك الليلة نام أبي مع أمي ، وتكوّنت أنا من نطفةٍ مرتعشة خوفاً ، وبعد تسعة أشهر ولدت ، كانت صفارات الإنذار ودوي المدافع والانفجارات حتى الذّرية منها تملأ أسماع الشعوب ، وكانت روائح ملايين الجثث تزكم أنف الكرة الأرضية ، في ذلك الزمن ولدت مرعوباً ، ويقال بأنني لم أرغب في مغادرة بطن إمي والخروج إلى هكذا دنيا ، لكنهم سحبوني بالقوة ، واعطوني إسم أخٍ لي توفي قبل ثلاث سنوات .

ولدت ولم يأخذ أحدهم رأيي فيما اذا كنت أرضى بالانتماء إلى هذه الطائفة أو تلك ، كنت مجرد كائن صغير لا هم له سوى اللعب ، ولا أعرف شيئاً عن الخيارات والأهداف ، لذلك لم تهتم بي الأجهزة المعنية ، ولم أكن أعني لهم شيئاً لا أنا ولا قريتي ، في تلك المرحلة لك أكن قادراً على التميز بين السارق والمسروق ، وبين صاحب الحق ومغتصبه ، ولكن بهد انتقالنا للمدينة ، بدأت الأمور تتغير بالتدريج ، وأخذت تراودني الأحلام حول رغبتي في بناء عالم أكثر شبعاً وعدلاً ، كنت أتحول من كائن إلى إنسان وخلال هذا التحول أخذت تتوضح أمام عينيّ وفي فكري معاني كلمات وشعارات بأننا أمة واحدة من المحيط إلى الخليج ، وأن لهذه الأمة رسالة يجب أن تؤديها ، وحتى الأسماء أصبح لها رموزاً أخرى ، لم أعد أحفظ هذه الأسماء لأنجح في المدرسة بمادة التاريخ ، صار ليوسف العظمة وسلطان باشا الأطرش وهنانو وصالح العلي موقعاً جديداً في قلبي، وتوضحت لي أسباب مجازر ديرياسين وتل الزعتو وغيرهما ، واتسعت الرؤية أمامي لتشمل الثورة البلشفية ، وصمود فيتنام وكوبا ، أليس من المضحك المبكي أنهم لم يبالوا بي عندما كنت اذهب إلى

المدرسة حافياً؟ هل يحزنهم أن يعلموا بأنني بلغت الصف الثالث الابتدائي وأنا أحمل حقيبة مدرسية حاكتها لي أمي من كيس طحين ؟ كانت مدرستي تبعد عن قريتنا ثلاثة كيلومترات ، وكانت ساقية أقرب إلى نهر صغير تعترض سبيلنا نحن التلاميذ ، فلا نجرؤ على عبورها في بعض أيام فصل الشتاء ، لذلك كان عددٌ من الآباء يأتون في وقت طوفانها ويعملون على نقلنا من ضفة إلى أخرى ، هناك عند الضفّة ، تذوقت لأول مرة طعم اليتم ، كنت أراقب الرجال وهم يحملون أولادهم من جانب إلى آخر ، وفي ذلك اليوم اعتقد بأنني شتمت أبي الذي مات وتركني وحيداً على ضفة الساقية ، يومها رجعت إلى القرية باكياً ومزقت دفتري وكسرت قلمي غضباً ، وقبيل الغروب كان جميع أهالي القرية يعرفون ماحدث معي، لقد أحزنهم ذلك ، واعتذر العديد منهم من أمي وأقسم كثيرون بأنني سأكون أول من يجتاز الساقية في الفيضانات القادمة ، وبعد أيام من تلك الحادثة ، حلمت بأن أمي قد اشترت لي أباً من الباعة الجوالين ، الذين يجوبون القرى ، وهم يحملون على ظهورهم الأقمشة والمرايا والأمشاط ، وحين رويت الحلم لأمي قالت لي وهي تحبس دموعها :

-والدك شهيد ، ولن استبدله بأي رجل آخر في هذه الدنيا.

وفي نهاية العام الدراسي رحلنا عن القرية إلى المدينة ، كانوا قد اشتروا لنا بيتاً هناك مقابل دم أبي ، كان البيت عبارة عن غرفة واحدة ، وصالون وحديقة ، وفي هذا البيت تعرفت على شيء يدعى الكهرباء ، كنت أقف مذهولاً أمام زرٍ في الجدار وبكبسة واحدة يعم الضياء داخل الغرفة ، وبكبسة ثانية يختفي النور ، كنت أتساءل حائراً ، كيف يحدث ذلك؟ ولماذا لا يصدر المصباح رائحة كقنديلنا في القرية ؟ كان المصباح يتوهج من دون زيت ، ولا يمكن اطفاؤه بنفخة ، وظل المصباح شغلي الشاغل لعدة أيام ، ثم بدأت انجذب لشيء آخر كانت أمي تحذرني منه :

-لا تقترب من البحر .. البحر ليش كذوار النهر ياوديع.

حين تلاقيت مع البحر لأول مرة ، بدى صافياً وحنوناً رغم اتساعه اللامحدود ، واذكر أنني بكيت فرحاً ، وبهدوء مددت يدي إليه وصافحته ، ومنذ ذلك التاريخ صار البحر يلازمني كظلي ، يحملني وأحملن كلما ابتعدت عنه ، كنت سعيداً به ، وبحديقة بيتنا التي كانت مجموعة رائعة من الازهار والورود ، إضافةً إلى شجرة رمّان ، وإلى جوارها شجرة إكي دنيا ، كانت بكثابة فندق مجاني لعصافير الدوري ، هنا كنا نعيش على راتب والدي التقاعدي ، وبعد سنوات وبالرغم من أنني لم أعد اذهب حافياً إلى المدرسة ، وأصبح لدي حقيبة جلدية ، لكنني تركت المدرسة من الصف الثامن ، وبدأت العمل في صيد الأسماك على زورقٍ يملكه والد أحد زملائي في المدرسة ، كنت أريد أن أرفع من مستوى معيشتنا ، واساعد أمي في تحمَل أعباء البيت ، لكن إصرار أمي على متلبعة تعليمي ، دفع بي بعد عامين إلى ترك الصبد ، والالتحاق بمدرسة

خاصة ، فاكملت تعليمي دون أن اترك مهنتي بشكل نهائي ، كنت أعمل في البحر خلال العطلة الصيفية ، وادخر بعض النقود لأدفع أقساط المدرسة ، وبعد نجاحي في الشهادة الثانوية ، التحقت بجامعة دمشق وحصلت على عملٍ في الإذاعة ، كان البحر معلمي الثاني بعد أمي، منه تعلمت الوضوح والصراحة ، والهدوء والغضب والصبر ، وربما العناد أيضاً .

-ماجدوى كل هذه التفاصيل التي كتبها؟

كانت ذاكرته تتفتح ، وأفكاره تكاد تسبق قلمه إلى الأوراق ، ولربما شعر بشيء من الندم لانه كشف شيئاً من الأسرار العائلية، ومن أسرار أيام الفقر والجوع واليتم ، وكجريح في معركة غير متكافئة قرر وقف النزيف ، اذ ماعلاقة الأجهزة الأمنية بأحلام قدميه بحذاء؟ وماعاتقتهم بقنديل الغاز وبحكايات جدتي عن الجن والعفاريت ومعجزات الأولياء؟ أدرك أن عليه صون ماتبقى ، ولن يكتب حتى عن عواء الذئاب في وديان قريتهم .

من يقوى على انتزاع كل ذلك من قلبه ؟

كان يتعرق خجلاً مما كتب ، وبحركة متشنجة مزّق الأوراق المتعلقة بتاريخه العائلي وماعانته إسرته ، وشعر بأن اسراره تعود إليّ وتختبئ في خزائن ذاكرته ، كان المساعد حسن يراقبه بدهشة ، ومن دون أن يطلب منه ، استدعى حاجبه وأمره بأن يجلب له فنجاناً آخر من القهوة وقال له :

-لماذا العصبية ؟ اكتب على مهلك .

وبعد أن أشعل سيجارته ، سمعه يهمس له بمودة :

-ابتعد عن التفاصيل ، ولا تكتب إكثر مما هو مطلوب .

كانت نصيحته في محلها لذلك لجأ للاختصار وكتب مايوضح لهم اين درس ، وأين يعمل إضافةً إلى أسماء أخوته وأعمالهم

-هل يكفي ذلك ؟

سأله خائفاً من أن يطلب المزيد ، لكنه أجابه باسماً :

-يكفي ويزيد ..واعتقد بأنهم لن يشاهدوه أبداً .

قال ذلك كمن يخاطب نفسه ، ثم نهض من وراء مكتبه ، وأعاد القيد إلي يديه والطماشة إلى عينيه وأجرى اتصالاً مع حكمت الذي جاء سريعاً واستلمه وأعاده إلى الزنزانة ، وقبل أن يقفا عليه الباب ، همس حكمت معاتباً :

-لماذا تحدثت مع المعتقلين ؟ وهل تعرف الموقوف أحمد من قبل ؟

أجابه بالنفي ، لكنه اعترف بإجراء الحديث فقال :

-أحد الحراس سمعكما تتحدثان ، الأمر الذي دفع بي إلى معتقلة الحارس كي لا أعاقب أنا .

قال حكمت ، ووضع فمه قرب اذنه وهمس بحذر :

-تذكر أن للجدران آذان.

ثم ربّت على كتفه وأقفل باب الزنزانة ومضى .

في الزنزانة ، تزاحمت في رأسه شتى أنواع الأسئلة والانفعالات والمشاعر ، هل التقرير الذي كتبه يعني ختام التحقيق معه ؟ وهل هم فعلا اقترحوا إخلاء سبيله ؟ ثم من هي الجهات العليا ؟ ومن جديد عاتب نفسه لأن ذاكرته قد بلغت حد الانفلاش في مكتب المساعد حسن ، كان رأسه يؤلمه ، وشعر بأن بداخله خشخشة وكأن عزقات أفكاره بحاجة إلى الشد ، كان رأسه عكراً كينبوع يلهو به طفل بعصاه ، يحرك الذرات الراكدة في القاع ، حيث تطفو على السطح بعيداً عن مستقرها الطبيعي بين زوايا التناسي الآمنة ، لم يكن يغفر لقوة ذاكرته أن تصيح هي مصدر ضعفه ، ووجه اللوم لرأسه كيف اوشك أن يستسلم لاغواء الذكريات ويسمح لها بالاندفاع والوقوع في شرك الأسئلة الملغومة ، كان يعلم بأن فقدانه لهذا المخزون الروحي والنفسي سوف يعرضه للاهتزاز ويجعل منه شخصاً فارغاً مقتلعاً من تربته كشجرة بلا جذور ، تسخر منها أية ريح ، فما قيمة الشجرة التي لا تعرف كيف تصون في ذاكرتها أسرار اليخضور ، وهمسات الأوراق ، وحوار الجذور مع التراب ودغدغلت النسغ الصاعد في الساق ؟ كيف تسمح شجرة لنفسها بالبوح بكلمات البراعم وهي تنطق بحروف التفتح الأولى ؟ ما اسمها الشجرة التي تسلّم أسرارها إلى العواصف والسيول ؟ وتفشي أسرلر العصافير التي تزقزق فوق أغصانها ؟

-أليس هناك تشابه بين الانسان والأشجار ؟

تذكرت إهمالي لواجب زيارة شجرة تين كانت تعيش بالقرب من منزلنا ، تلك الشجرة رافقت طفولتي ، والأصح هو أن طفولتي رافقتها ، هي الآن هرمة ، وتستعين بعكاز يساعدها على الوقوف ، كنا صديقين نتحاور ، ونتخاصم أحياناً ، ولن أنسى كيف قذفتني ذات مرة من أحد أغصانها إلى الأرض ، كنت طفلة أحاول الوصول إلى ثمرة تين جاءت مبكرة تحمل معها البشرى باقتراب المرسم الصيفي ، لم أبك يومها ، بل رشقت جذع الشجرة بالحجارة ، وحين رأيت دماً أبيض يسيل من جراحها ، بكيت ، ومرت الأعوام واستمرت الشجرة في العطاء ، وكأنها تقول للجميع بأنها مانزال حية .

أليس من المدهش لن الشجرة حتى في لحظات احتراقها تعطي شيئاً ما ؟؟

بمزيد من اللوعة أتذكرها ، كانت في كل عام تقدم لنا مفاجأة الثمرة الأولى ، وكانت الشجرة تتجدد وهي تشيخ ويظهر عليها وقار المهابة والنضج العميق ،

وهنا يكمن سر التجدد الذي لا يحق بي البوح به ، إنه السر الذي اعتقد بأنهم اعتقلوا والدي لأجله ، وبنوع من الاعتزاز ، شعرت بأن ذاكرتي تمتد من زنزانته حتى جذور الأشجار ، وتحفظ معها أسرار الأعماق ، ثم تحولها إلى ثمراتٍ ناضجة ، إنه العطاء الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى نوعٍ من الموت الجميل ، ولكنه ينتج حياةً أكثر جمالاً .

-خذي الحكمة من الأشجار يا ابنتي ، إنها لا تركع وتفضل الموت وهي واقفة .

هكذا قال لي والدي ذات مرة ، ومع الأيام ادركت بدوري أن الموت على طريقة الأشجار ، هو وحده الذي يليق بالإنسان .

-لماذا لم أتعرض للتعذيب حتى الآن ؟؟ أهي الواسطة ؟ أم لأنهم يعرفون فعلياً بأن لا علاقة لي بأي تنظيم؟

لثوانٍ تمنى لو أنه تعرض للتعذيب مثل الآخرين ، بالطبع ليس حباً بالتعذيب ، بل ليختبر قدرته على تحمل الألم ، طوال عمره كان يشعر بأنه قوي ، ولكن إلى أي مدى يمكن للقوة أن تصمد تحت ضربات السياط رلسعات التيار الكهربائي؟ داهمه شعور بالغرور للحظات ، كانت حياته تبدو عادية كحياة ملايين البشر ، ولكن ماذا عنها الآن ؟ شعر وهو يتمدد في الزنزانة أن لحياته أهمية تستحق الاحترام ، وربما تصبح فيما بعد جديرة بالتسجيل ، وراودته فكرة أن يكتب سيرته الذاتية ، أليس من حق الأجيال القادمة أن تعرف ماذا حدث معه ؟ هل يعقل أن يذهب هذا الكم المتراكم من القهر والألم هدراً ؟

كانت ذاكرته تسترخي بين يديه وتفرش أوراقها أمامه ، وفي الوقت الذي أغمض فيه عينيه على حلم الحرية والكتابة ، ارتفع الصخب أمام الزنرانة ، وبدأ في المراقبة ، كانت عملية جلد جماعية تجري في الصالون القريب منه ، حقاً لم ير شيئاً لكنه سمع ما يكفي ليعرف ماذا يدور .

-ياحرام !

تمتم وتراجع إلى مكانه وساد الصمت بعد قليل ، وفجأة فتح حكمت باب الزنزانة قائلاً :

-انتعل حذائك وتعال معي ، إنهم بحاجة إلك زنزانتك .

في غرفة المكتب ، أغلق حكمت الباب ، وقد قرأ في وجهه ملامح الحزن على الشيء الذي جرى قبل قليل .

-كان عليك أن تترك قلبك في البيت .

همس بالم مكبوت ، وأضاف :

-اذا بقيت هنا ، سترى الكثير .

-ألن أعود إلى الزنزانة ؟

-لا..سيادة العقيد أمر بنقلك إلى الندوة ، وستبقى هناك إلى أن يأتي الفرج ، وفي الطريق إلى الندوة ، كان يحذره :

-اياك أن تتحدث مع المعتقلين ، لقد أعطيناهم أرقاماً بدلاً من أسمائهم حتى لا يتعرّفوا إلى بعضهم ؟
-وماذا عني ؟
ابتسم بحزن وقال :
-أنت الآن تدعى الرقم ثمانية ، فاذا سمعت أحد الحراس ينادي ثمانية فاعلم بأنك أنت المقصود وعليك أن ترد بكلمة حاضر .
شعر بالدنيا تدور به ، هكذا بكل بساطة تحول من وديع إلى ثمانية ، صار رقماً بعد أن سرقوا الاسم الذي وهبته له أمه ، وبومضة تذكرت مقالاً كتبه قبل زمن طويل ، عن تهميش الشعوب ، وتحويل الناس إلى مجرد أرقام ، أرقام تحصى عند فرض الضرائب ، وفي حالات الحروب والاوبئة ، أما في حالات السلم ، فعلى هذه الأرقام أن تتقن تربية الدجاج ، ليأكل السادة البيض الطازج .
هل كان عليّ أن أناديه بابا أم ثمانية ؟
حاول حكمت أن يشرح له مبررات الترقيم ، فقال باصرار :
-لن أكون إلا نفسي وأرفض أن أكون رقماً .
أمسك حكمت بيده وهمس له :
-لا تكابر ، واحمد ربك بأن لك واسطة ، وإلا لسلخوا جلدك .
وبعد عدة خطوات ، سمع صوت عامل المقسم ، وعرف فيما بعد بأن باب الندوة يقع في مواجهة باب المقسم ، وهناك تبادل حكمت الحديث مع الحارس المناوب:
-مرحباً هيثم
-أهلاً
-استلم
-زبون جديد ؟
-لا ، كان في الزنزانة
سمع هيثم يتنهد باستياء ويقول :
-أين سأضعه ؟ المكان لم يعد يتسع .
-دبر رأسك ..إنها أوامر سيادة العقيد .
-ما اسمه ؟
-ثمانية
قال حكمت ثم أضاف :
-هيثم ، ماذا أوصيك بع ؟
-بأي معنى ؟
ضحك حكمت وربت على كتفه قائلاً :
-رقم ثمانية له وضع خاص بالمعنى الإيجابي ، إنها الأوامر ياصديقي .
قاده هيثم إلى الداخل ، وهناك أوسع له مكاناً بين المعتقلين ، وأمره بالهدوء والصمت ، حاول الاستلقاء على ظهره ، لكن هيثم قال له بسرعة :

-المكان لا يتسع لأحد أن يتمدد على ظهره ، نم على جنب يا ثمانية .
كان النوم على الظهر مستحيلاً بسبب الزحام ، لذلك نام على جانبه الأيمن ، وهو يشعر بدوار بسيط ، كان الجو خانقاً، مليئاً بأنفاس الرجال وروائح الدم والعرق والعفونة ، وكم تمنى لو يقوى على خلع سترته ليستخدمها كوسادة بدلاً من حذائه الذي يرقد صامتاً تحت رأسه ، كان الهدوء يخيم تقريباً على المكان ، وكان متعباً ومحبطاً ، وبدأ جسده يتعرق وكأنه على أبواب المرض ، ورغم الحالة التي كان فيها ، لم يستطع الامتناع عن التفكير ، بأنه مجرد رقم وسط كومة من الأرقام والأقدام والرؤوس ، كانت قدم أحدهم قريبة من رأسه ، لأنهم يرقدون متعاكسين ، بحيث يوجب أمام كل معتقل في هذا الجانب ،معتقل يقابله في الجانب الآخر من الندوة ، كانت أرض الندوة مغطاة بفرش عسكرية مهترئة ولك يكن الوضع مريحاً، تمنى لو يعودون به إلى الزنزانة .
-مرحبا أخ هيثم .
سمع أحدهم يقول بمرح ، وكان من الواضح أنه يقف على باب الندوة ، فردّ عليه هيثم معاتباً :
-لماذا تأخرت ياسيد منيف؟
-إنها المواصلات يا أخي ، ألديك ما يؤكل ؟
ضحك هيثم قائلاً :
-لم أرك في حياتي إلا جائعاً .
فسأله منيف :
-هل وزع بلال السندويش على المعتقلين ؟
أجابه هيثم :
-ربما .. استلم مناوبتك ، وأنا سأذهب إلى النوم .
-اعتقد بأنه يخبئ بعض السندويش في أدراج الندوة .
-السندويش للمعتقلين وليس لك .
ضحك منيف قائلاً :
-اللعين بلال يسرق طعام المعتقلين ، وأنا أسرقه مع فارق كبير ، هو يسرق الكثير وأنا اكتفي بسندويشة واحدة .
شدّه الحوار بين الحارسين .
-ياهيثم ! أقسم لك بأن راتبي لا يكفي لوجبة عشاء في مطعم فاخر ، لذلك اعتمد على سرقة عشائي من بلال .
-أنا ذاهب ، وانتبه .. إن المساعد محمود يدقق في ..
قاطعه منيف ساخراً :
-ياعيني .. المساعد محمود شريك بلال في السرقة ، وهو الذي يتعهد شراء الطعام للمعتقلين.
-اخفض صوتك يا مجنون ..

قال هيثم محذراً ، فرد منيف ضاحكاً :
-أنا مجرد مجنّد ، ولست خائفاً على رتبتي ، وبأقل من عام انهي خدمتي الإلزامية وأعود إلى القرية .
وهكذا غادر هيثم واستلم المناوبة منيف ، الذي صرخ بلا مبرر :
-بلا صوت .
لم يكن أحد في الندوة يتكلم أو يهمس حتى ، وسمع وديع خلفه حركة فتح أدراج ، كان يستند بظهره إلى الجدار الذي يفصل بين الندوة والمطبخ الصغير جيث يقف العامل ويصنع الشاي والقهوة عادة ، وكمن يحدث نفسه سمع منيف يهمس بفرح :
-هذه العلية تحتوي على بعض مربّى المشمش ، ولكن لا يوجد خبز ، ومع ضحكة خفيفة أدرك بأنه يلتهم المربى من دون خبز ، وعادت به الذكرى حيث دونها ذات يوم :
ذات يوم ارسلتني أمي لشراء علبة دبس من الدكان ، وفي طريق عودتي إلى البيت ، فتحت العلبة وبدأت ألعق الدبس بلسااي ، ثم بأصبعي ومن سوء حظي رآني أخي ، فضربني وأخذ العلبة ، وقبل وصوله إلى باب البيت ، رأيته يلعق الدبس بدوره .
ووجد نفسه يتساءل :
-هل يعقل أن يكون منيف جزءاً من أداة القمع وهو يلعق المربى كطفل ؟
وقبل أن يصل إلى جواب نهائي ، يبدو أنه استسلم للنوم ، لكنه استيقظ على صراخ هستيري ، كان أحد المعتقلين في حالة كابوس ، وسمع منيف يطلب من الحارس الذي جاء ليستلم المناوبة عنه :
-صب شوية مي على وجهه ياعبد الكريم .
كان المدعو عبد الكريم ، يشتم صاحب الصراخ ويصفعه قائلاً :
-هل كنت تحلم بأننا نقوم بشنقك ياخنزير ؟؟
اعترض منيف على ضرب الرجل وقال موضحاً :
-دعه يارجل ! يكفي مانااله هذا الصباح أثناء التحقيق .
-الأمر ليس بيدي وأنا لم أتعمد الصراخ
وعلى الفور صرخ عبد الكريم :
-اخرس ياكلب ..من سمح لك بالكلام ؟؟
وتلقى المعتقل صفعتين جديدتين ، ثم ساد الصمت ، وعادت الأنفاس تنتظم ثانية ، وحاول عبثاً العودة إلى النوم ، وبما يشبه الهمس ، سمع تنهيدة من أحدهم :
-آه ..يا يامو !
وبدوره تذكر أمه ، كانت تمد له فراشاً على الأرض بجانب سريرها ، وتنشر فوقه شرشفاً أبيض ، وتضع له لحافاً يظل يشتم فيه رائحة الحنان والصابون إلى أن يغفو .

-آه يا أمي .
تمتم بحزن ، وصورتها تنثل أمامه ، كان وجهها يمتلئ بالهم والتجاعيد ، وفوق جبينها توجد تضاريس لتربة من الأعصاب والصبر والإيمان ، كان كل من رآها يشعر بأنها قد فرغت لتوها من نوبة بكاء ، كانت تمتلك عينين محا الزمن لونهما ، لكنها لم تصل إلى مرحلة الانهيار ، بل على العكس من ذلك ، كانت كما هيه أمي الآن .. ادهش من قدرتا على الصبر راجتراع الألم ، وإصرارها على تربيتنا ، كانت تعلم بأن مستقبلها هو نحن ، وكنت كما والدي .. أدرك مدى حاجتي إلى عزيمتها وإلى حزنها المثمر وأفراحها القادمة .
-الصبر طيب !
هكذا كانت تقول جدتي ، لذلك عليه أن يصبر على ماهو فيه ، ومن أجل الحقيقة . للك يكن اعتقاله مفاجئاً له ، بل كان يتوقعه، لكن الشيء الذي لم يكن يتوقع هو مايعيشوه ويتعرضون له ، ووجد نفسه يتساءل :
-ترى لو عرفت بما يعانيه المعتقلون ، هل كنت سأتراجع عن مواقفي ؟
وحين همس بكلمة "لا" ابتسم تحت الأغطية ، كانت أنفاسه تزداد سخونة ، وشخّص حالته بأنه مصاب بالتهاب اللوزتين .
-آخ يا يامو .
كان المعتقل ذاته صاحب الكابوس يردد بصوت مرتفع ويئن .
وجد نفسه يتدخل صائحاً :
-ألا يوجد طبيب أو ممرض لهذا الرجل ؟
وجاءه الجواب من الحارس عبد الكريم :
-اخرس ياحمار ..
ولأنه ليش حماراً ، صرخ ثانيةً :
-الرجل يتألم وهو..
لميسمح له عبد الكريم باتمام جملته ، بل انهال عليه بأربع ضربات من الكابل الذي يستخدمه كسوط ، وهنا تجرأ أحدهم قائلاً :
-الرجل ينزف ، ورائحته لا تطاق .
وردّ عليه عبد الكريم غاضباً :
-وما أدراك بأنه ينزف ؟؟ هل تسترق النظر من تحت الطماشة؟
وبهدوء أجابه المعتقل :
-إنه جاري ، ودمه يلوثني .
قهقه عبد الكريم ساخراً :
-لحظة لأعطيك زجاجة من العطر !
وسمع ضربات السياط تنهال على المعتقل ، الذي تابع كلامه :
-اضربني كما تشاء.. لكنني اعتقد بأن الرجل يحتاج إلى مشفى .
أخمدت ضربات عبد الكريم كل صوت في الندوة .

-اذا سمعت كلمة واحدة سأجلدكم جميعاً ، مفهوم ؟
شعر وديع بأن حنجرته قد جفّت تماماً ، وأنه بدأ ينحدر في هاوية لا قرار لها ، كان رأسه يدور ، وأجفانه غدت رصاصية وحرارته ترتفع ، وعلى تخوم الإغماء، وتحت البطانية القذرة ، صدرت منه آهة مكبوتة ، وهمس :
-آخ يا يامو .
ولست أدري في تلك الليلة اذا كان قد بكى قبل أن يفقد الوعي .
-وديع ؟؟ وديع !!
كان أحدهم يهمس في اذنه ، رفع الطماشة قليلاً ، ونظر إليه وصرخ :
-ماجد !
-هس لا ترفع صوتك .
تبادل القبلات مع ماجد الذي مضى على اعتقاله قرابة العام .
-تبادلت المكان مع جارك لأتمكن من التحدث إليك .
أوضح له ماجد كيف يحصل المعتقلون على شيء من الحرية ، أثناء مناوبة عدد محدود من الحراس الذين وصفهم بالأوادم ، وخاصة المدعو وجيه ، وإلى حدٍ ما هيثم ومنيف .
-بوجود هؤلاء نستطيع التهامس فيما بيننا .
-المهم .. أين باقي الشباب الذين اعتقلوا معك ؟
سأله بلهفة .
-انتقلوا إلى أحد السجون ، وأنا قريباً سألحق بهم ، هكذا وعدوني .
قال ماجد وأضاف :
-أتعلم أن صاحبك عبد المسيح هنا ؟
-أين ؟ في الندوة ؟
-أجل .. ولكنهم أخذوه ليلة أمس قبل أن يتمكن من إشعارك بوجوده.
-إلى أين أخذوه ؟ إلى السجن ؟
-لا ..فهمت من وجيه بإنهم أمروه بالوقوف أمام غرفة الحرس ، إنها عقوبة جديدة .
-كيف ؟؟ لم أفهم هذه العقوبة .
تنهد ماجد وقال :
-عليه أن يبقى واقفاً ، إلى أن يتجمع الدم في قدميه ويسقط أرضاً .
كانت همسات المعتقلين تتوارد مرحبة به ، وكان ماجد يقدمهم إليه باسمائهم الحقيقية ، باستثناء المعتقل الذي كان يستنجد بأمه طيلة الليل ، وعلق أحدهم عليه قائلاً :
-جراحه تنزف ، وجسده مهترئ ، وهناك كسر في أضلاعه .. لا أظنه سيعيش طويلاً .
-أخفضوا أصواتكم ياشباب .

جاءهم التحذير من المعتقل القريب من باب الندوة ، وسمع صوت الحارس يتساءل :
-من كان يتكلم ؟
-أنا يا أخ وجيه .
-ماذا تريد ؟
قال ماجد مشيراً إلى وديع :
-هذا المعتقل الجديد يسأل عن أي شيء خافض للحرارة .
دخل وجيه إلى المكان المخصص لإعداد المشروبات ، ومط رأسه من فوق الجدار القليل الارتفاع وسأله :
-ما اسمك ؟ وماذا تعمل ؟
-وديع ..
لك يتركه وجيه يكمل حديثه وبشيء من العتاب سأله مجدداً :
-ألم يحذرك حكمت من البوح باسمك الحقيقي ؟ قل لي ماهو رقمك ؟
-منذ ولادتي وأنا أحمل اسم وديع ، فكيف تريدني أن أنساه بهذه السرعة ؟ ولكن بكل الأحوال رقمي هو ثمانية .
شعر بأن وجيه يملك بعض المعلومات عنه ، لأنه قال بما يشبه النصيحة :
-الصحفي فضولي بطبعه ، وحاذر يارقم ثمانية أن تمارس فضولك هنا ، وذلك حرصاً عليك .
كان الموقوف صاحب كابوس الأمس يتوجع ، وقد كشف جاره عنه البطانية وقال :
-انظر يا أخ وجيه ..إنه على وشك الموت،
كان جسده يبدو مثل طريق ترابية أصابها وابل شديد ، ثم عبرتها قطعان الماشية تاركة وراءها آثار حوافرها ، كانت خاصرته تبدو معجونة باللحم والدم ، وكان ماتبقى من ظهره محروثاً بالسياط ، شقوق وحفر صغيرة تتجمع فيها قطرات من القيح والمصا ، وأشياء أخرى تشبه الدم والقشور .
-انظر إلى قدميه !
طلب ماجد من وجيه ، واردف قائلاً:
-هل من الضروري أن يموت بيننا؟
كانت ساقاه هي الأخرى مليئة بالشقوق ، شقوق متورمة ، وعلى حوافها يتخثر دم أسود ، ولأول مرة في حياة والدي ، لم يشعر بالقرف من رؤية القيح والدم ، كان في تلك اللحظة ، يشعر بأن العالم كله ينزل ، وتساءل في سرّه عما اذا كان العنف يقوى على بناء عالم نظيف ؟ وهل استطلعت السياط منذ أن وجدت أن تنبت زهرة واحدة ؟ بالطبع يا أبي ، لن تقوى الأحقاد على زرع سنبلة !
-ارجوك يا أخ وجيه أن تأخذوه إلى أقرب مشفى .
قال ماجد وعلق آخر :

-اعتقد بأنه قد بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة .
كان وجهه كخروف صغير يُدفع برأسه إلى الخلف ، كي يسهل ذبحه ، أو أقرب إلى حلزون يحمل بيته على ظهره ، وقد تم سحقه تحت وطأة بوط ثقيل .
-البارحة أخبرتهم عنه ياشباب ..وسأفعل ذلك الآن .
قال وجيه ، ثم غادر الندوة بسرعة .
-هل تعلم بأن وجيه ابن حارة عبدالمسيح ؟؟ وهيثم ابن حارته ايضاً .
سأل ماجد وديع ، وسمع شخصاً آخر يقول هامساً :
-وجيه مجرد حارس ولا حول ولا قوة له .
وبدون أن يفكر ، أجابهم والدي :
-كل شخص حي ، هو مسؤول .
ضحك ماجد بنعومة وقال :
-هذا كلام جرائد ، نحن الآن في فرع أمني ، ولسنا في وزارة الإعلام ، هنا يضربون المرء كأنه صخرة ، دون أن يأبهوا لقابلية الجسد البشري للتفتيت .
-مع فارق يا اخ ماجد ..الصخرة تتفتت ولكنها لا تصرخ .
نظر إلى الرجل الذي قال ذلك ، كان يرتدي بدلة عسكرية من دون رتب ، وله لحية طويلة بيضاء ومعتدل القامة.
وقبل أن يتدخل في الحديث ، صرخ وجيه قبل أن يصل إلى باب الندوة .
-بلا صوت .
كانت صرخة وجيه بمثابة تحذير بأنه ليس وحده ، فلزموا الصمت ، وبعد ثوانٍ دخل اثنان من العناصر وهما يحملان نقالة ، حيث حملا الشب الجريح إلى المشفى ، وبعد ذهابهما قال وجيه :
-قابلت سيادة العقيد وشرحت له الموقف ، وعلى الفور أمر بنقله إلى المشفى العسكري .
وفي تلك اللحظات ، جاء بلال وسأله وجيه :
-ماذا تجلب معك اليوم ؟
-مربّى المشمش.
دخل بلال إلى الفسحة التي تقع وراء والدي ، وبدأ يكدس الأرغفة على حافة الطاولة ، كانت رائحة الخبز الطري تتسلل إلى صدره ، أرغفة حقيقية لها رائحة القمح والبراري .
-كم عددكم اليوم ؟
رد عليه ماجد :
-العدد نفسه يابلال ..
وفجأة صرخ بلال كمن لسعته أفعى :
-من أكل علبة المربى ؟ البارحة تركتها وهي تحتوي على ربعها .
-لم أرى أحداً دخل إلى هنا يابلال.

-قلبي يحدثني بأن منيف هو الفاعل .
-لا تتهمه اذا لم تكن متأكداً .
-البارحة كان الخبيث يراقبني خلسة ويضحك .
-صحة على قلبه ..منيف شاب فقير وطيّب .
فصرخ بلال :
- محمود يحابسني على اللقمة ، أتريد أن ادفع من جيبي؟
-المهم أن تطعم الشباب .
شرع بلال في إعداد السندويش وهو يتمتم :
-سبعة في الزنزانات ،ثلاثون في الندوة ، وثمانية عشر في الصالون .
انحنى ماجد برأسه نحو وديع وهمس له :
-نحن دائماً نعرف عدد المعتقلين هنا ، من خلال عدد السندويشات التي يعدها بلال .
بعد دقائق ، أصبح جميع من في الندوة يأكل ، مثل قطيع من الخراف في المساخ ، يلتهمون طعامهم بعيون متعبة ، وبأيادٍ مكبلة بالحديد ، خراف تمضغ بقلق ، وكأنها تشعر في قرارك نفسها بأن السكين لم تعد بعيدة عن أعناقها .
-رغيفي تقريباً ناشف ، ولا أشعر بوجود شيء فيه .
قال لماجد الذي رد ساخراً :
-هكذا يعوض بلال الكمية التي أكلها منيف .
وهمس المقدم رهبان :
-ما الذي يجري معي ؟ في كل إفطار اتذكر أمي ، أنا ابن قرية صغيرة في حوران ، وكانت لدينا بقرة بلدية ، ومن حليبها كانت الوالدة تعدّ لنا اللبن والجبن ، وتطعمنا البيض الطازج .. يا لها من أيام !
ومن باب الندوة جاءهم صوت آمر :
-بلا ثرثرة يادواب .
وبسرعة همس ماجد لوديع:
هذا الحارس يدعى عباس ، وهو من أسفل الحرّاس هنا ، فخذ حذرك منه .
وأضاف عباس مهدداً :
-الويل لمن يزيح الطماشة عن عينيه !
كان المعتقلون قد اخترعوا جهازاً للإنذار المبكر ، سعلة خفيفة ، أو عطسة مفتعلة يقوم بها المعتقلون الذين يتواجدون قرب الباب ، وكانت هذه الإشارات تحذرهم بأن الحارس المناوب يبتعد أو يقترب .
وفي تلك اللحظات طلب أحد المعتقلين الاذن من عباس لقضاء حاجته ، فصرخ به عباس غاضباً :
-ويحم.. ماذا تشرب حتى تطلب الاذن بالذهاب إلى التواليت ؟

كان طالب الاذن يدعى حنّا ، وهو مدرس فلسفة ، كان جسده نحيلاً ، ويشكو من انفكاك في معصم يده اليمنى ، كان يجلس في مواجهة والدي ، وقد لاحظ عليه بأنه لا يكف عن قضم شواربه بأسنانه ، ولسبب ما شعر بالفرح لأنه بينهم .
أليست الحياة مدرسة ؟ همست لنفسي وأنا أقرر بأن الذكريات والماضي قد علمني الكثير ، وبأن الحياة تزيد هي الأخرى من معرفتي للعالم ، كانت المعرفة في عمرٍ صغير تحملني المسؤولية من حيث هي معرفة وفعل ، ومن حيث هي دافع للبحث عن الحقيقة والسعي لبناء مستقبل أفضل ، ومن دون إرادتي ساقني تفكيري إلى جملة تساؤلات ، هل يستحق الناس أن يتحملوا عنهم كل هذه المعاناة ؟ بأي شيء تقاس دموع أمهاتهم ؟ كانت الأسئلة تتزاحم في رأسي ، عندما كان يروي لي العم صقر مايذكره عن رفيق عمره وديع ، كان يشعرني بأن العالم من حولي بخير ، وفي كل مرة يذكره ، أرى الحزن في بؤبؤ عينيه ، وفي نبرة صوته ، وكان قد رثاه بقصيدة كتبها بقلمٍ ريفي ، يعرف معنى الصداقة ، كان العم صقر قد ألقى على نفسه لقب الملغى ، ويقصد بذلك أنه ملغى من الشرق الأوسط بأكمله ، لقد تجاوز من عمره الخامسة والسبعين ، ولا يزال يعمل في أرضه ، من الجميل أن تجالس أصحاب الأيدي النظيفة ، الذين يرفضون مصافحة الذئاب والأفاعي .
-حاول أن تنام يارجل ..
-وانت؟
-أنا قلق عليك!
كان الهدوء عموماً يخيم على المكان ، إنه الوقت الذي يترافق مع اقتراب الفجر ، وكانت نسمة رقيقة تعبر النافذة ذات القضبان ، وجاءه صوت عامل المقسم ، الذي ذكره بصديقه أيمن ، وكان قد تطوع في الأمن كعامل مقسم وقد نصحه ذات مرة :
-العين لا تقوى على مقاومة المخرز !
يومها أجابه بطفولية وقال لع :
-وماذا يستطيع المخرز أن يفعل مع ملايين العيون ؟
بالفعل ياوالدي توصلت مؤخراً إلى قناعة مفادها بأن المخرز يقوى على فقأ العيون .
كان تنفّس ماجد قد انتظم ، ومن بعيد سمع آذان الفجر ،فاغمض عينيه ، ولن يستيقظ إلا على صوت بلال وهو يسأل الحارس الذي يهّم بالمغادرة :
-هل زاد العدد؟
-لا..
وفجأة جاء منيف ليكون الحارس البديل ، وبسرعة قال له بلال :
-ألا تمف عن سرقة الندوة ؟ قسماً سأرفع بك تقريراً إلى رئيس الفرع وبلهجة مرحة قال منيف :

-علبة المربى كانت شبه فارغة ، ومع ذلك سأدفع لك ثمن سندويشة.
-قل ..وحياة شرفي سأدفع لك.
-وحياة شوفك يابلال سأدفع لك.
غادر بلال الندوة ليجلب لهم الطعام ، وبنوع من الروتين صرخ منيف :
-بلا صوت !
وسمعوه بعد ذلك يثرثر مع حارس آخر ، من حراس الباب الخارجي .
-عجيب ! ماذا حدث مع عبدالمسيح؟
سأل وديع ماجد ، وكان قد عاد لتوه من التواليت فهمس قائلاً :
-أجبروه على الوقوف حوالي سبعين ساعة ، وحين سقط أرضاً ادخلوه إلى غرفة حكمت لتدليك قدميه ، هكذا قال لي أيمن ، وقد أرسل سلامه إليك .
-لماذا لم يحاول أيمن التواصل معي؟
-إنه ينتظر الفرصة ليفعل ذلك .
كانوا يتبادلون الهمسات ، وكان أحدهم يؤكد بأنه بريء ، وحاولوا إقناعه بأن القاعدة هنا تقول بأن كل إنسان متهم حتى يثبت العكس ، وعاد بلال مع طعام الإفطار وكان عبارة عن رغيف وبداخله قرصان من الفلافل، لدلك وضع لهم ابريقاً كبيراً من الماء ليساعدهم على البلع ، وسألهم منيف :
-كيف وجدتم الفلافل ياشباب ؟
وسارع وديع للإجابة :
-السندويشة رائعة أولا أن خضرتها كثيرة .
التقط منيف السخرية وقال لبلال :
-الخضرة تؤذي المعدة ، أليس كذلك يادكتور بلال ؟
-المساعد محمود هو الذي يحدد لي ماذا عليّ أن اشتري .
قال بلال مدافعاً عن نفسه ، ومع ضحكة خفيفة قال منيف :
-المساعد محمود يأخذ خمس ليرات عن إفطار كل معت ، ولكنه لا يشتري بأكثر من ليرتين ، والفارق يذهب إلى جيبه .
-أنا لم اسمع شيئاً يا منيف .. والمهم أن تدفع لي ثمن السندويشة، ألم تحلف بشرفك بأنك ..
قاطعه منيف ضاحكاً :
-بل حلفت بشرفك أنت ، وليس بشرفي !
وبعد نقاش قضير ، توصل الطرفان إلى حل ، حيث تعهد منيف بأن يدفع لبلال آخر الشهر ثمن المربى وسنديشة الفلافل التي أكلها قبل لحظات .
وقبيل الظهيرة ، انتهت مناوبة منيف ، واستلم المناوبة حارس آخر يدعى شفيق ، كان شفيق نصف مجنون ، نحيل ، عصبي المزاج .
-بلا صوت يابهائم.

افتتح شفيق مناوبته بهذه الكلمات ، وبدأ يربت بالسوط على الجدار .كان الجميع يحرص على عدم إثارة جنونه بالصمت التام .
كان أحدهم في الجهة المقابلة لوالدي ، وقد رآه يرتعش تحت بطانيته ، وأغلب الظن بأنه كان يبكي ، فأحكم وضع الطماشة على عينيه ، واختبأ بدوره تحت بطانيته ، وبعد فترة من الزمن ، شعر بماجد يدخل رأسه تحت البطانية ويهمس له بفرح :
-انظر..لقد أعادوا عبدالمسيح إلى الندوة.
جاء اثنان من العناصر بعبد المسيح ، وتوجه شفيق إلى عبدالمسيح محذراً :
-اسمع يارقم ٢٤ أياك أن تتحدث من أحد.
اذن ..عبدالمسبح صار رقماً هو الآخر ، وهنا قرر وديع المغامرة بازاحة الطماشة قليلاً والنظر إلى عبدالمسبح ، كان يبدو في حالةٍ أقرب إلى الإغماء، وقد تورّمت ساقاه بشكل مخيف ، كان يبدو مثل شجرة أتعبها الوقوف ، فهوت التحول إلى حطب في مواقد الفلاحين .. هناك في الغابات تغمض الأشجار أجفانها وهي تشعر بالسعادة ، وكأن كل شجرة تدرك مدى أهميتها في الحياة ، عندما كنت طفلة ، كنت أتساءل هل تنام الأشجار ؟ ألا تشعر بالتعب من كثرة الوقوف ؟ ومع الزمن اكتشفت أن هناك من يداعب الأشجار ويتسامر معها ..همسات النسيم ، زقزقة العصافير ، أحاديث الفلاحين والعشاق تحت الظلال.
ولكن ماذا بإمكان الجذع أن يفعل أمام فأس؟
-بلا همس !!!
هكذا ودعهم شفيق في نهاية مناوبته ، وبعد مغادرته بدقائق ، جاء صوت هيثم يسأل :
-أين عبدالمسيح؟
-إنه هنا في جواري .
قال أحدهم ، دخل هيثم بين المعتقلين يتفقد نبض عبدالمسيح ويتفحص ساقيه ، وطلب أن يدلكوا له قدميه ، وذلك على مسؤوليته
-أنتم على دراية بتصرفات بعض العناصر ، ولكن هناك من يتساهل ويتعاطف معكم ، لذلك كونوا على حذر من تلك النماذج السيئة .
قال ذلك هيثم فرد أحدهم :
-نحن نخاف عليك ياهيثم .
-ذهابك من عندنا خسارة كبيرة لنا ، فكن حذراً .
رد هيثم بتنهيدة عميقة ، وتراجع ليقف عند باب الندوة ، كان عبد المسبح في حالة أقرب إلى الغيبوبة ، وكانت ساقاه في حضن أحد المعتقلي يدلكهم ، وآخر يدعى كوزان يصلي جالساً ، وفجأة مد يده فوق رأس عبدالمسبح ، وراح يتمتم بالفاتحة وبعدها بآية الكرسي.
وقبل أن ينهي كوزان صلاته ، قال هيثم :

-نسيت أن أخبركم ، لقد توفي الشاب الذي أخذوه إلى المشفى ليلة أمس.-وهنا قال كوزان :
-لنقرأ الفاتحة على روحه ياشباب .
بعد الفاتحة ، ساد الصمت ، وبدأ وديع يفكر بعبدالمسيح :
-ماذا لو مات هو الآخر ؟
كان عبدالمسيح يكبره بحوالي خمس سنوات ، وقد عاش أهله في حارته ، كان قد أخبرني أحد الأصدقاء بأن والده كان يعمل في سلك الدرك ، ثم انتقلت العائلة إلى اللاذقية، ومن يومها لم يلتق به أحد ، وخلال هذه الفترة المديدة ، درس عبدالمسيح في القاهرة ، ثم في ألمانيا ، وعاد ليعمل في وزارة الثقافة.
-انتباه ..انتباه .
قطع صوت حكمت الصمت ،حيث كان يقف على الباب وبيده ورقة رسمية
-سأقرك عليكم هذا الأمر ، ومن يسمع رقمه عليه أن يجهز نفسه لمغادرة الفرع .
وعلى الفور سأله وديع :
-إلى أين سنغادر ؟؟
عرف حكمت صوته ، وبسرعة أجابه :
-أنت يارقم ثمانية لا علاقة لك بالموضوع .
كان رقم ماجد في رأس القائمة ، ثم تلاه رقم كوزان وتتالت الأرقام ، وهمس له ماجد:
-أرجو ألا يطول مكوثك هنا كما حدث معي !
شعر بحزن إضافي بعد رحيلهم ، وتمنى لو ذهب معهم ، ولكن إلى أين ؟؟
وبقليل من التفكير همس لنفسه :
-ليس في الأمر إطلاق سراح ، وإلا لنادى عليهم حكمت باسمائهم ، وليس بأرقامهم ، ولفك أصفادهم على الأقل .
-هل هذا إخلاء سبيل ؟
سأل أحدهم هيقم ، وبحذر شديد أجابه :
-بكل أسف لا..لقد رأيتهم أمام الفرع ، وقد ربطوا إلى بعضهم بجنزير طويل ، وصعدوا جميعاً في سيارة تابعك للشرطة العسكرية .
كلمات هيثم أعادتهم للصمت الثقيل ، وسمع هيثم يقول :
-لماذا لا ترد يارقم ثمانية؟
-آسف . كنت شارداً
فقال هيثم ؛
-تعال .

استلمه حارس آخر عند البلب ، وقاده إلى مكتب الأمانات ، الذي هو مكتب حكمت أيضاً ، استقبله حكمت بابتسامة ودودة ، كان يجلس وراء طاولته ، وأمامه ابريق من الشاي يتصاعد البخار من فوهته .
-إجلس .
صبّ حكمت الشاي في مأسين ، ورفع الطماشة عن عينيه وفكّ قيده.
-كيف أصبك عبدالمسيح الآن ؟
نظر إليه باستنكار وبجعبته الكثير من الكلان ، لكنه لم يترك له مجالاً للحديث كأنه قد قرأ أفكاره :
-أقسم لك بأن الجهات العليا لا تعمل ماذا يفعل من هم تحت خدمتها في الفروع ، وكذلك يحدث في مختلف المؤسسات ، إنها الثقة في وجود ضمير لأشخاص لا تعرف كيف تبتسم .
-وماذا عني؟
-الجميع ينتظر قرار الجهات العليا ،. لماذا لا تدخن ؟ العلبة أمامك .
قال ذلك ، وقدم له سيجارة وأشعلها مؤكداً بأن بقائه لن يطول ، ثم سأله بشكل مباغت :
-هل تعجبك مصياف؟ مارأيك بريفها ؟
ادهشه السؤال ، لكن حكمت أضاف باسماً :
-أنا ابن قرية صغيرة في ريف مصياف ، وقد عرفت بأن لك أصدقاء كثر هناك.
ومع الكأس الثانية من الشاي ، قدّم له سيجارة جديدة ، وراح يسأله عن راتبه ، وعما اذا كان يسكن بالايجار ، وأخذ رقم هاتفه ، وحدثه عن حلمه بالتخرج من الجامعة والعمل في سلك التعليم الثانوي ، كانوا يشربون الشاي ويدخنون كأي صديقين .
-باذن الله سوف أزورك في البيت عما قريب .
ومع ضحكة لطيفة أضاف :
-ولن أرضى بشرب الشاب معك ، وأنت تعرف قصدي!
-دعنا نخرج أولاً ، وبعدها لكل حادث حديث !
تأمله حكمت للحظات وسأله :
-هل تعملت شرب الويسكي ؟
-لو كنت من جماعة الويسكي لما رأيتني هنا.
ضحك حكت وقتل :
-اذن أنت من جماعتنا ، والدي يصنع العرق له ولضيوفه !
سرحت بأفكاري إلى مصياف وريفها ، وإلى متزل العم صفر في قيرون ، الذي تربطني به مشاعر لا توصف ، كانت أفكاري تدور فوق دروب قيرون حتى امتلكني النعاس ، وتركت القلم وذهبت في نوم عميق .

وقبل أن أغفى ، كان وجه والدي يومض للحظات تاركاً وراءه جمراتٍ في القلب المثقل بالأحزان ، أية قوة على وجه الأرض تقوى على اقتلاع كل ذلك من رأسي ؟ كانت ذاكرتب تقودني كالمسحورة من مشهد إلى آخر ، وتحتار كنحلة في حقل ربيعي على ثغر أية زهرة ستقف ، ومن رحيق أي ذكرى سترتوي ، إنها الحيرة المليئة بالحب ، في زمن الطفولة كنت أقطف زهرة درباس ، وانتزع أوراقها ورقة ورقة وأنا اردد أبي ..أمي ....أبي ويفوز أحدهم مع الورقة الأخيرة ، كيف يتسع القلب إلى واحة من الحب ، في تلك الواحة يرى المرء نفسه في الآخرين ويرى الآخرين في داخله ، وليس شرطاً أن يعلم الآهر بأنك تحبه أم لا ، ماهمني إذا كانت الوردة لا تعلم بأنني أحبها ؟ وهل حقاً الوردة لا تشعر بشيء ، ذات ليلة وعلى طاولة شراب بين صديقاتب ، قالت لي إحداهن :
-لماذا تعبسين في وجه كأسك ؟ ابتسمي لها وسترين كيف تبادلك الابتسامة .
مع لزمن بدأت أرى بعينٍ أخرى ، بتّ اعتقد بأن الأشياء تحس ، وأن السكون حالة مؤقتة ليست من طبيعة الحياة ، شعرت بأن الوردة تتكلم فعلاً مع الإنسان ، أليست الرائحة العطرة كلاماً؟
استيقظت من أفكاري بين الوديان والورود ، وفي أنفي تزكم رائحة الورد الجوري ، وشعرت بحماسٍ جنوني لأكمل قصة والدي، التقطت قلمي والدفتر ، كنت قد توقفت عند حكمت ،
-أنا هنا وحدي إلى حد كبير ، معظمهم يتحاشاني بسبب قرابتي مع رئيس الفرع ، بدا واضحاً بأن حكمت بحاجة نفسية إلى شخص آخر ليتحدث إليه ، ولم يجد والدي حرجاً في الحديث معه بحرية ، وقد شجعته طيبة قلبه على الكلام وطرح الأسئلة ، كيف نحب ؟ ولماذا نغضب ؟ وكيف يشعر أحدنا بالتعاطف أو بالتناقض مع هذه الفكرة أو تلك ؟ أين يكمن الخلل في علاقات البشر مع بعضهم كأفراد أو حماعات ؟ إن هذا العطب الكوني له عمر العبودية .
مامعنى أن تخترق قلبك سهام الحب المغمسة بالدم ، منذ فترة قرأت بضع كلمات لشكسبير جاءت على لسان هملت :
-ماهذا المخلوق الرفيع ابصنع الإنسان ؟ كم هو راجح عقلاً وغير محدود القدرات ، إنه زينة الدنيا وسيّد الأحياء .
نهض حكمت حاملاً الابريق ليجدد الشاي ، لكن رنين الهاتف أوقفه
-آلو ..نعم سيدي ، حاضر ..لا لا فوراً .. احترامي.
وضع حكمت الابريق على الطاولة وقال معتذراً :
-اليوم عطلة رسمية ، ويتزامن من عطلتي الأسبوعية ، ولكن كلفوني بعما خارج الفرع .
وأضاف وهو يعيد القيد إلى يدي وديع والطماشة إلى عينيه :

-أنا آسف ، وكنت أول من كل قلبي أن نستتر في الحديث ، وبهدوء أمسك بيده وأعاده إلى الندوة .

في الندوة ، سارع إلى الاسترخاء ، وأحكم وضع الطماشة فوق عينيه ، قرر الدخول في تأملاته الخاصة كما كان يفعل أحياناً ، كان يذكرني بنفسب ، استلقى في الفراش ويلفني الظلام ، تمر الساعات وأنا أفكر بما يجري معي ومن حولي ، إنها عادة تريحنب وتجعلني أعيد النظر بالعديد من القضايا العامة والخاصة ، وبين يدي نفسب اعترف بأنني أخطأت هنا وأصبت هناك .
كان الشخير الذي يصدر من بعضهم يعمر عليه صفو الحديث مع نفسه ، إضافك إلى صراخٍ بعيد يصل من الغرف والزنازين الأخرى .
تعلمت من تجربة والدي بأن الشخص المندفع يخطأ وأن الحماسة قد تؤدي إلى الدمار.
فجأة تعالت الصرخات في الممر القريب من باب الندوة ، كانت عملية جلد جماعية تجري بحق بعض الموقوفين الجدد ، فتساءل في سره :
-ألا يوجد في هذا العالم لغة أخرى للحوار غير الجلد والضرب ؟
وبعد فترة ،انتهت عملية الجلد وساد الهدوء ، وانقطعت سلسلة محادثته مع نفسه ، وقبل أن يغفو كانت فكرة واحدة تهيمن على أفكاره :
-كيف عليّ أن أصمد وأحمي نفسي من الانهيار أنا وباقي المعتقلين؟
ووجد نفسه يبتسم تحت الأغطية ، لأنه عثر على جواب هكذا سؤال ، كان عليهم أن يبتسموا ويتحاوروا ، رغم كل شيء ، لذلك نام سعيداً بعض الشيء، وفي الصباح كان الحارس منيف يطل برأسه من باب الندوة صارخاً كعادته :
-بلا صوت !!
وكعادته ايضاً تركهم منيف وصعد الدرج ليتبادل الحديث مع أحد حراس الباب الخارجي ، الأمر الذي يتيح لهم تبادل الآراء والأحاديث مع بعضهم بصوت خافت ، وبعد دقائق بدأ يسمع بوضوح كل مايقال ، وجاءه صوت عبدالمسبح يضحك مع الآخرين ، فعاد الحارس منيف معاتباً :

-ياشباب ! ماهذا الضحك ؟ هل تريدون لي أن ادخل السجن؟
اعتذر وديع من منيف نيابة عن الجميع ، ومن جديد تركهم وذهب إلى الباب الخارجي ، وبدوره سأل أحدهم عن الزمن الدي بقي وهو معاق من قدميه .
-كم مر عليك من الزمن وأنت معلق من قدميك ؟
تنهد وهمس له:
-لا أدري ..كنت معلقتً كمصباح كهربائي يتدلى من السقف ، هل جربت مرة أن تنظر إلى الآخربن بالمقلول ؟ كنت أراهم تحتي ، ومع مرور الوقت بدأت أشعر بأن عيناي على وشك الانفجار ، كان دمي يتجمع في رأسي ، وبين الحياة والموت سمعت أحدهم يأمر بانزالي .
وفي تلك اللحظة ، سمعوا منيف يقول لأحدهم بمرح :
-استلم المناوبة ياعبدالرحمن ، وكن لطيفاً مع الشباب.
كان الحارس الذي حل محل منيف مربوع القامة ، ازرق العينين ، وكانوا يروه لأول مرة ، حيث جلس على كرسي أمان باب الندوة ، وفتح مجلة أدبية كانت في يده ، وفجأة همس له أحدهم :
-عبدالرحمن !
التفت عبد الرحمن وهمس باستغراب :
-أما زلت هنا ؟ لقد ظننت أنهم اطلقوا سراحك .
كان عبدالرحمن حارساً على زنازين أخرى ، وهو معلم مدرسة يخدم الإلزامية اوكان طيب القلب ومن حسن حظهم أنهم نقلوه إلى حراستهم .
-مرحبا عبدو !
دخل بلال مسلماً على عبدالرحمن ، وهو يحمل السندويش ، فسأله أحذهم :
-ماذا سنأكل على الغداء؟
أجابه بلال :
-جئتكم اليوم بسندويش مدعوم !
انهى بلال توزيع السندويش المدعوم بالبطاطا المقلية ، وسمعناه يسأل عبدالرحمن :
-أين ثمن السندويشة؟
-سندويشة ماذا يابلال؟
-عجيب ! البارحة أرسلت لك سندويشة حلاوة ، ألم تكن تحرس وراء الفرع ؟
-كنت هناك فعلاً ، لكنني لم استلم أي سندويشة .
-أرسلتها لك مع منيف بناءً على طلبك .
-لقد فعلها منيف بك ..وأخذ السندويشة لنفسن .
-قسماً سأخبر المساعد بذلك .
-لا داعي يابلال ..تعال..أنا سأدفع لك ثمن السندويشة.

قبض بلال ثمن السندويشة ومضى ، ومع نهاية الغداء جاء أربعة حراس يحملون على بطانية رجلاً ممدداً على بطنه وظهره العاري عليه علامات السياط .
-أوسعوا له مكاناً .
صاح أحد الحراس ، وسمعت عبدالرحمن يهمس برعب:
-يا إلهي ماهذا ؟
غادر الحراس الندوة ، كان الرجل يصرخ بجنون وفي عينيه نظرات رعب ، وأمام هذا المشهد فقدوا جميعاً الرغبة في الكلام ، وكان الألم واضحاً على وجوه الجميع ، بما في ذلك الحارس عبدالرحمن الذي أغلق المجلة التي كان يقرأ بعا ، وبدا عليه الشرود .

خلال خمسة أيام من وجود الرجل المحروق بينهم ، لم يتمكنوا من معرفة أي شيء عنه ، وكان وجوده بينهم يشكل ضغطاً نفسياً على الجميع ، لم يكن يصدر عنه أي صوت سوى الأنين ، لقد رفض بشكل قاطع البوح لهم حتى باسمه .
كانوا يقومون بشكل يومي بتنظيفه ودهنه بالمراهم ، وفي صبحية اليوم السادس ، بدت علائن الانشراح واضحة على الحارس عباس ، وكأنه يتوقع شيئاً ايجابياً بخصوص وضع المعتقلين ، وكان الكل يشاركه مشاعره الإيجابية ، أما وديع كان ذهنه لايزال مشغولاً بالرجل المحروق ، وكان فضوله كصحفي يدفعه إلى التساؤل : من هو؟
انتشله من تساؤلاته صوت عبدالرحمن الذي استلم المناوبة بدلاً عن عباس ، وكان صوت راديو الحارس الخارجي يصرح بالاغاني، وقد لاحظوا انهم زينوا الفرع بالأعلام والشعارات والصور ، وبلهجة لا تخلو من السخرية المبطنة ، مدّ عبدالرحمن رأسه داخل الندوة وقال :
-كل عام وأنتم بخير.
-هل تتوقع أن يحدث شيء بالنسبة لنا ؟
فقال عبدالرحمن بمرح :
-علمها عند الله سبحانه وتعالى
ولكن أحدهم بادر إلى التعبير عن تفاؤله قائلاً :
-هذه مناسبة هامك جداً ، وأنا أرجح بأن بعضنا سيخرج الليلة .
وقبل أن يعلق أحد على الموضوع ، جاء صوت حكمن :
-يارقم ثمانية ، تعال معي .
وسمعهم يتهامسون وهو يغادر الندوة :
-بدأت إجراءات إخلاء السبيل ياشباب .

قاده حكمت إلى الطابق الثاني ، وأدخله إلى غرفة ما ، وأغلق الباب ، وخلال لحظات امتدت يد إلى طماشته ونزعتها عن عينيه ، ورأى أمامه شاباً أسمر ، طويل القامة ، يبتسم له مرحباً :

-أهلا بك يا أستاذ وديع .

ثم فك القيد من يده وقال بمودة :

-تفضل بالجلوس .

وبسرعة لاحظ دهشته فقال:

-لا تخف ، ليس إعادة للتحقيق معك !

ومع ابتسامة لطيفة أضاف :

-أنا الملازم أول غسان ، أنا من منطقة الغال ، وأنا أعرفك عن طريق كتاباتك أولاً ، وثانياً عن طريق أهلي ، فهم يعرفون أقاربك وأصدقائك ، والجميع أوصاني بك .

ومع فنجان القهوة والسيجارة ، شعر بأنه ليس رقم ثمانية ، بل إنه إنسان ، وكان سعيداً بكلماته حين قال له ؛

-أنت وعدد قليل من الموقوفين ، ذهبت أضابيركم إلى الجهات العليا بناء على طلبهم ، ونحن أرفقنا الأضابير باقتراح إخلاء سبيلكم ، أي بصريح العبارة ، نحن كجهة أمنية لا نرى ضرورة لابقائكم قيد الاعتقال .

-وماعلاقتهم بنا؟

ابتسم غسان وقال :

-لا تتغابى ، أنت تدرك جيداً علاقتهم بكل شيء .

-بصراحة ، لقد سمعت من حكمت أن الملفات قد..

قاطعه غسان قائلاً :

-الملفات راحت منذ فترة ، لكنهم طلبوا منّا إيضاحات إضافية حول عددٍ منكم ، وأنا أصريت أن أنقل لك الخبر بنفسي ، أنتم الآن أمانة لدينا ، ونحن بانتظار الأوامر للافراج عنكم ، ثم سأله عما اذا كان بحاجة إلى شيء ، فشكره وهو يعيد القيد إلى يديه ، ويحكم الطماشة فوق عينيه ، ويدق جرساً حيث جاء أحدهم وأعاده إلى الندوة ، كان الجميع في الندوة ينتظرون عودته بفارغ الصبر ، وبعد أن روى لهم ماحدث ، بدأت التعليقات :

-هذا يعني أنهم لم يخلوا سبيلنا اليوم ، ولكنني على ثقة بأن الأمر لن يطول .

-لا تتفاءل أكثر من اللزوم .

علت أصواتهم في النقاش ، وتدخل الحارس ليضع حداً لأصواتهم المرتفعة ، وعبر اليون دون أن يخرج أحد ، وبعد ثلاثة أيام وهند الفجر تقريباً ، امتلأت الندوة بالموقوفين من مختلف الأعمار ، بحيث أصبح من المتعذر عليهم الجلوس والتمدد على الأرض دفعة واحدة ، لذلك قرروا إتباع نظام المناوبة ، نصفهم يقف ست ساعات والنصف الآخر يستريح على الأرض ، ولكن الحالة تغيرت

بعد الظهر ، لإنه تم إخلاء سبيل عدد لابأس به من الموقوفين الجدد ممن اعتقلوا صدفة ، وكان بينهم شاب صغير في الصف التاسع فسأله وديع :
-ما الذي حدث في حارتكم ؟
-كنت في طريقي إلى فرن التنور ، عندما بدأ الهجوم فحاولت الهرب لكنهم أمسكوا بي .
ثم أضاف وهو يرفع الطماشة عن عينيه ويتفقد المكان :
-فهمت بأن هنالك منزلاً لعصابة مسلحة في الحارة .
وفجأة أشار الشاب إلى رجل عجوز وقتا :
-هذا الرجل هو مختار الحارة ، اعتقد إنه يعرف حقيقة ماحرى أكثر مني .
نظر إلى المختار ، كان حسب تقديره في السبعينات من العمر ، كلن يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، وبين لحظة وأخرى يرفع الطماشة ، ويمسح عرفه براحة يده ، وحين التقت نظراتهم ، رفع يده مسلماً عليه .
فصاح بصوت مرتفع :
-وعليكم السلام ورحمة الله !
سمع الحارس صوته فصرخ به :
-ممنوع الكلام أيها العجوز!
وبطرف السوط ضربه الحارس على رأسه ، فصرخ المختار :
-أنا بعمر أبيك ، مو عيب عليك تضربني ؟
ومن جديد هدده بالجلد اذا استمر بالكلام ، وهنا تدخل الشاب الصغير موضحاً للحارس :
-المختار جارنا بالحارة ، وسمعه قليل ، إنه نصف أطرش .
هز الحارس رأسه ، وعاد إلى كرسيه على باب الندوة ، بينما كان المختار يهمس لنفسه متمتماً :
-راحت عليك يا أبو عبدو ، دعسيتك الخيل.
ثم رفع يده إلى عينيه ويمسح دموعه هذه المرك وليس عرق جبينه .
وفي آخر الليل أطلقوا سراح الشاب الصغير ، وقبل ظهر اليوم التالي جاءوا إلى الندوة بمعتقل جديد ، قصير القامة ، وله شارب لا تتناسب مع وجهه النحيل ، أجلسه الحارس في الجهة المقابلة للمختار ومضى ، وقبل أن يسألوه عن أي شيء بدا أن المختار قد عرفه ، فصرخ به :
-لعنة الله عليك وعلى بيتك ياصيّاح !
فرد الرجل بسرعك :
-أنت السبب يامحتلر ..بيتي طار وصار خرابة !
تدخل الحارس عبدالرحمن وحاول أن يعرف سبب الخلاف بين الرجلين ، فقال صياح :

-مختارنا أبو عبدو لديه مكتب عقارب ، وأنا تركت الحارة للسكن مع أهل زوجتي ، وأعطيته مفتاح بيتي ليقوم بتأجيره ، وحضرته قام بتأجير البيت لعصابة مسلحة !
دافع المختار عن نفسه قائلاً :
-أنا أجرت البيت لامرأة وزوجها ، هل أعلم بالغيب !
تدخل أحد المعتقلين على مايبدو أنه محامي، وسأل المختار عمّا اذا كان قد سجل عقد الايجار لدى مخفر الشرطة ، فقال المختار :
-لم أسمع ماذا تقول ..قوّي صوتك يا أخ .
وقبل أن يعيد السؤال ، جاء حكمت وأخذ المختار للتحقيق ، أما صيّاح قد بدأت الدموع تتدافع من عينيه .
-لماذا تبكي وأنت لم تتعرض لشيء ؟
فقال صياح بقهر :
-ابكي على أبو اركان
-ومن هو ؟ هل هو من اقربائك ؟
أجاب صياح بحزن :
-أبو اركان بغلي .
-بغلك ؟
سرت همهمة في الندوة ، وتابع صيّاح :
-أنا طنبرجي ووضعت البغل في زريبة لدى جارنا في الحارة القديمة وتعهد بأكله وشربه.
وتنهد صياح بأسى وأضاف :
-زوجتي لا تحب أبو أركان ، ولا أحد من أهلي يعلم بوجودي هنل ، لذلك أختف عليه من الموت جوعاً .
سأله أحدهم ساخراً :
-من يسمي دابة أبو أركان ؟
رد صيّاح بغضب :
-البغل ليس للمسخرة يا أخ!
-آسف يا صيّاح ، واعتذر منك ومن السيد أبو أركان .
وفجأة سأله صياح عن اسمه ، ثم قال له:
-أنت تدعى جابر منذ ولادتك ، وهو يدعى أبو أركان منذ ولادته ، ولنفترض أن أهلك باعوك ، فهل يتغير اسمك ؟ أنا اشتريته واسمه أبو أركان ولن أبدل اسمع لخاطر أحد.
كان الحارس عبدالرحمن يتابع الحديث بشغف .
-ألم تسجله على دفتر العائلة ؟
سأله جابر ، فقال صياح :

-لديه بطاقة باسمه ..
وسأله جابر محدداً :
-وهل أبو أركان عاذب أم متزوج ؟
أجاب صياح بثقة:
-أبو أركان عاذب ، واذا كان لديك عروس تناسبه ، فيسرّنا أن نتقارب منك يا أخ جابر .
منذ مدة لم يضحكوا بمثل هذا الصفاء ، رقد تولدت لديهم قناعة تامة بأن صياح ليس سوياً تماماً ، وقد أشار لهم خلسة بأن جابر قليل العقل ، كانت كل حركة أو كلمة من جابر ، تدفع بصياح إلى نوبة من الضحك الهستيري ، مما دفع الحارس للتدخل وتهديد صياح اذا استمر بضحكاته هذه ، مما دفعه للقول :
-سأضحك وحدي تحت البطانية .
وفعلا تمدد صياح وغطى نفسه من قدميه حتى قمة رأسه ، وهنا مط جابر بجسده فوق صياح ووضع وجهه فوق وجهه ، وساد جو من الصمت والهدوء والترقب ، فأزاح صياح البطانية عن وجهه ، وشاهد وجه جابر يكاد يلتصق بوجهه ، فأطلق صرخة رعب ترافقت مع ضحكات المعتقلين ، فقال صياح للحارس عبدالرحمن
-أبعد هذا المجنون عني.
وتمالك الحارس عبدالرحمن نفسه من الضحك وقال مخاطباً الجميع :
-يكفي ياشباب ..مناوبتي انتهت ولا أعرف من هو البديل ، لذلك أرجوكم أن تحافظوا على الهدوء.
في المساء ، وبعد الانتهاء من العشاء ، جاء حكمت وأخذ صياح إلى التحقيق ، وبذهاب صياح عادوا إلى همومهم ، وإلى الاشاعات التي بدأت تتسرب لهم ، وتشير إلى قرب إطلاق سراحهم ، وقد لاحظوا أن معظم عناصر الفرع بدأوا يتعاملون معهم كضيوف ، تساءل وديع متفائلاً :
-ألا توجد طريقة لنتأكد من صحة هذه الإشاعات ؟
أجابه جابر :
-لو عاد التقرير سلباً أو ايجاباً لكنا علمنا بذلك من خلال تصرفات الحراس معنا.
ثم تنهد بحزن وأضاف :
-مهما جرى ، لا أعتقد بأنهم سيطلقون سراحنا قبل سنوات وسنوات .
فصرخ به أحد المعتقلين
-قسماً بالله أنت مجرد بومة !
-لا بأس ، فالبوم طائر الحكمة .
-يا أخ جابر .. نحنا هنا أبرياء مع وقف التنفيذ ، ولو أثبتوا علينا شيء كنا قد عرفنا على الأقل ، وهم في قرارة نفسهم يعرفون بأننا أبرياء إلى حدّ ما ، باختصار علينا أن نصبر وننتظر عودة الاقتراح بإخلاء سبيلنا .

وأضاف ضاحكاً :
-الاعتقال وحصل ، لكن على الأقل يشبوعنا أكل !
أجابه جابر :
-أهاذا الذي يأخذ عقلك ؟ معقول أنت لا تفكر بغير الأكل ؟
-الأكل يساعدني على الصمود .. بربك ماذا تفعل سندويشة مع رجل مثلي يتجاوز وزنه مائة كيلو غرام؟
-أحمد ربك على هذه السندويشة ، هل جاءوا بنا إلى هنا لنأكل ؟
وقبل أن ينتهي الحديث ، عاد حكمت برفقة صياح وادخله إلى الندوة ، فسأله شاب يدعى عيسى عما حدث معه ، فقال صيّاح :
-أخذوني إلى الزريبة ، حيث يوجد أبو أركان .
وبسرعة سأله جابر :
-وكيف كان اللقاء بينكما ؟
أجاب صيّاح بحزن
-حين رآني وشم ريحتي صار يبكي ، وحياتك يا أخ جابر رأيتن بعيني يبكي ، وكان جائعاً وبحاجة إلى الماء وطلبت منهم ..
قاطعه عيسى متسائلاً :
-لماذا أخذوك إلى الزريبة ؟
قال صيّاح :
-فتشوا الزريبة بحثاً عن السلاح ، وحين لم يجدوا شيئاً ، سمحوا لي بوضع الطعام والشراب أمام أبو أركان.
-هذا يعني أنه قريباً سيطلقون سراحك ، يجب عليك أن تفرح لو أنه مشكوك بأمرك ، لكا سمحوا لك بأن تطعم أبو أركان .
-ولكن متى ؟ أخاف أن تطول هذه المدة ، وأخرج إلى الحياة حيث يكون لا أثر لأبو أركان ، لربما تظنون صيّاح مجنون ، وتضحكون عندما أتكلم بقهر عنه ، فأنتم تشتاقون لأبناءكم وزوجاتكم وأصدقاءكم وأمهاتكم ، وأنا لا أضحك عندما تتحدثون عن تلك الأشواق ، مع إنه من المضحك أن تشغل بالك بشخص بشخص بإمكانه انتظارك ولا يحتاج إلى بقاءك بالخارج ليبقى على قيد الحياة ، أما أبو أركان ، فلا يمكنه أن يهتم بأموره ، فهو لم يتعلم إلا أن يهتم بي !
كل من أعددتهم لكم من معارفكم ، يهتمون بكم ، ولكن يهتمون بأنفسهم في المرتبة الأولى ، من منهم قد كرّس حياته لأحدكم ؟
ونحن في هذا المكان لا نعلم إلا بما يخبرونا به ! هل أسألهم عن بغل ! أنتم هنا في عداد الأصدقاء وضحكتم ، أما هم سوف ينهالون علي بالشتائم فحسب !
أجابه جابر بخجل :
-لا تحزن ، في الخارج الكثير من الأشخاص الطيبة ، سيهتمون به حتى يطلقون سراحك وتجتمع به مرة أخرى .

لم يجبه صيّاح ، كان عابساً بصمت ثم تمدد وألقى بالبطانية على وجهه وذهب في نوم عميق .
كان وديع يسرح في فكره وهو ينظر إلى المعتقلين من حوله ، وكله أمل ..
بين كل ألف مصلي ، ترى شخصاً واحد يملك الأمل ، وبين كل ألف معتقل ايضاً ، كان يعلم بأنه سيخرج من ذلك المكان ، ولو أن معجزة كونية قد تحصل ليحدث ذلك ، لكنه سيحدث في وقتٍ ما .
وبالفعل ، مضت سبع سنوات ووديع لم يفقد الأمل ، خرج قبله الكثيرون ومنهم صديقه ماجد وحتى صيّاح ، وكان وديع يبكي بعين ويضحك بأخرى ، حتى لا يسيطر عليه الحزن ، في الكثير من الأوقات كان يبكي كالطفل ، يبكي ويحلم بذلك اليوم الذي يرى به ضوء الشمس ويشتم به رائحة الحرية ، وذات يوم في طريقهم إلى الحمام ، كان يمشي وديع والمعتقلين من خلفه وأمامه ، نظر إلى السقف حيث كان هنالك ثقب يظهر به القمر ، وكان القمر بدراً في تلك الليلة ، وقف وديع و وجّه بنظره إلى القمر ، احمر وجهه غضباً وقهراً وخاطب القمر بصوت أشبه بالصراخ :
-إما أن أخرج من هذا المكان أو خذ أمانتك يا الله !
صرخ به الحارس :
-بلا صوت .. وانظر أمامك !
لم تزعجه كلمات الحارس ، فقد كان سعيداً برؤية القمر بعد سنين عديدة ، وبدأ يفكر هل اشتاق له القمر ، كان يحرسه في ليالي وحدته ويرافقه ذكرياته وضحكاته ، حتى دموعه كان شاهداً عليها .
-هل كان شاهداً على اعتقالي ؟ أم أنه أغمض عينيه حتى لا يرى صديقه في هذا المشهد ؟
في الحمام ، كانت دموعه تتساقط بحذر من قطرات الماء ، ولأول مرة شعر بالاستسلام ، حتى جسده لم يعد يقوى على الصمود ، ضحكته التي كانت تصل السماء وتضحك الغيوم حباً لها تحولت إلى وجه بلا ملامح ، تنظر له فلا تدري بما يشعر ، هل هو حزين أم سعيد ، ولونه الوردي بدأ يدخله إصفرار ، كوردة أصيبت بداء ، وتذبل رويداً رويداً .
وعندما عاد إلى الندوة ، استلقى دون أن يكلم أحد ، مع أنه عادة كان يستغل وجود حارس طيب يسمح لهم بالكلام ، إلا أن وديع قد دفن وجهه في بطانيته ، وكان يدعو الله أن يأخذ أمانته ، حتى راح في نوم عميق ..
بعد مرور مايقارب الشهر من حالة اليأس والإحباط ، كان يسمع همسات المعتقلين حوله
-يبدو أن وديع أصابه مرض ما .
-لا أظن ، لكنه سيموت قهراً إن استمر هذا الوضع .
-إنها سبع سنوات يارجل ، إنه رجل جبّار.

كان مستلقي مغمض العينين ، لم يشارك في الحديث لأنه لن يستطيع شرح كمية المعاناة التي يشعر بها ، حتى جاءه صوت الحارس أيمن :
-رقم ثمانية !
نهض وديع مسرعاً ، وكان قد تعجب من سماع اسمه الجديد ، فمنذ مدة طويلة لم يرسل وراءه أحد .
-تعال معي .
قال أيمن وهو يبتسم لوديع ، ثم وضع الطماشة على عينيه ومشى بجانبه إلى حيث لا يدري .
-ألا تريد أن تعرف إلى أين نذهب ؟
-وبما يهم ؟
ضحك أيمن ثم مشوا سوياً حتى سمع دقات على بابٍ ما بعد أن توقفوا .
-ادخل يا أيمن ، لماذا تضع الطماشة على عيني الأستاذ ؟! ألم تخبره ؟
-يخبرني بماذا ؟
تساءل وديع بكل فقدان للأمل ، فقال أيمن :
-تركتها مفاجأة .
-أستاذ وديع ، أنت الآن هنا في مكتبي بصفة ضيف ، وليس معتقل .
-وكيف حصل ذلك ؟
-انتهت مدة زيارتك لنا ، وتأكدنا من براءتك .
-ومدة تأكدكم تلك ، أخذت سبع سنوات من عمري ؟
-نحن أولاد اليوم يا أستاذ وديع ، تفضل استريح .. أيمن .. أجلب فنجان من القهوة للأستاذ ، ولا تنسى أن تجلب أغراضه من الأمانات .
كان أسرع فنجان قهوة قد شربه في حياته ، العالم كله لم يتسع لفرحته ، حتى أنه كان يبكي تارةً على سبع سنوات ضاعت من عمره ، ويضحك تارةً استقبالاً للحرية والعودة للحياة من جديد .
-ستنام عندنا الليلة فقط ، حتى ننتهي من الإجراءات الروتينية ، بإمكانك أن تنام في غرفة ايمن .
-لا ،.أريد أن أودع أصدقائي ، وأريد أن أجري اتصالاً لو سمحت .
أعطاه هاتفه فأجرى اتصالاً مع صديق له ، ليأتي في الصباح التالي ويخبر معارفه بأن غداً صباحاً ، وديع سيخرج من السجن .
عاد وديع إلى الندوة ، كانت دموعه تتساقط ويداه ترتجف خوفاً من أن يكون في منامٍ ما من كثر التفكير السوداوي في الفترة التي مضت عليه ، وحتى يودع أصدقاءه ، كان دور أيمن في المناوبة ، فسمح لهم بالسّهر حتى الصباح ، السهرة الأخيرة برفقة وديع .
في الصباح التالي ، خرج وديع من الفرع راكضاً ، كان يركض كطفل تعلم المشي مؤخراً ، قدماه لم تكن تحملاه من الفرحة ، أو أنه قد نسي كيف يركض ،

وأمام الفرع استقبله صديقه الفنان التشكيلي منصور ابراهيم وكان قد نعاه عند وفاته ، و تكلّم عن ذلك اليوم قائلاً:

في الطريق الى قيرون .. أواخر ثمانينات القرن الماضي.. كنت انا وهو والطريق والكثير من أشرطة العتابا الفريده التي كان قد جمعها من حياة كامله وشريط نادر عباره عن طبل وزمر لاادري كيف استطاع ان يحصل عليه ... قبل أن تلوح لنا مصياف كنا نسمع شريط الطبل والزمر .وهو يحاول أن يدبك جالسا على مقعد السياره ..صرخ بي بصوت عال وقف على اليمين ..وقفت ..فتح باب السياره ورفع صوت المسجل الى آعلى مستوى ..وبدأ يدبك كزوربا حول السياره .. أمسكت بيده على موهبتي الضعيفه في الدبكه حتى تصبب عرقا ...قال لي في السجن كنا محرومون من الدبكه (ولو دبكنا كان ممكن يحبسونا مؤبد على أساس أننا مبسوطين)

كان يقول لي ليك (الحياة متل كر قبرصي لازم تضل راكب عليها) أحسن ماتركب عليك

مئات القصص والذكريات.. سهرنا كثيرا على روايته الخميس الحزين التي تشرفت بإنجازغلاف لها أَحَبَهُ كثيرا

أنا لن أنعيك ياوديع

لأني متأكد من أنك لاتموت

في الحياة : أكبر مصادر فخرك كانت أنك ابن شهيد كنت تعتز وتفخر ان ابيك استشهد في حرب 48 قلت لي يوما (تخيل واحد يروح من الزياديه ويستشهد بفلسطين)

في السياسه كنت شريفا نظيفا صادقا محقا لاتعرف ابواب السفارات ولا تعنيك كل منظمات حقوق الإنسان مثلك الأعلى في الحصول على الحقوق والدفاع عنها كان غاندي

في المحنه : بقيت كما أنت مع الوطن . التراب الماء الهواء والإنسان ونسيت نعم نسيت لم يعرف قلبك أي من أنواع الحقد أوالإنتقام

في قصتك الرحله (كان الغجر يأتون الى ضيعتنا صيفا للمقايضه . نعطيهم تينا وخبزا يابسا مقابل الفرح والغرابيل وكانت روحي تفرح لسماع طبولهم تقرع بين الوديان)

في قصتك اللبش (الى شهداء لقمة الخبز من عمال البحر في ميناء جبله) أهدي هذه المجموعه

في (نارا) وليالي الصيادين كنت الى جانب الفقراء والمحتاجين

وهاهو جسدك الطاهر يسجى الى جانب فقراء قريتك الذين أحببتهم وأحبوك

لكن روحك ستبقى هائمة بين هذه الوديان تُسْمِعنا صوت طبول الغجر بعد أن هجروا وديانا ..وأصبحنا نبيع الخبز في تنانير على الطرقات

ستبقى روحك ترفرف فوق هذي البراري وتلقي على الأرض السلام .

عندما انتهيت من كتابة هذه الرواية ، نظرت إلى السماء ، و لاح لي وجهه يقابلني بابتسامة بين الغيوم . وللحظة شعرت بأن دمعة ما تكاد تسقط على وجنتي ، فخراً لأنني ابنة رجل تضج المجالس بطيب ذكره ، وللمصادفة في صباح ذلك اليوم استيقظت على الإحتفالات بسقوط نظام الأسد الذي دام 53 سنة!